جامعة الملك فيصل

عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

اسم المقرر

الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة

أستاذ المقرر

أ.د/ عبد الله الديرشوي

إعداد وتنسيق/ Bandar902 (أبو نواف)

1436-2015هـ

المحاضرة الأولى // تعريف عام بالخُلُق ومكانته في الإسلام

أولاً: تعريف الخُلُق:

الخُلُق لغة: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية والمروءة. وجمعه أخلاقٌ.

- ✓ **وسميت خُلُقاً لأنها تصير كالخِلْقة في صاحبها فلا تكاد تنفك عنه.**
- وهو يمثل صورة الإنسان الباطنة، والجانب المعنوي في شخصيته. أي؛ نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصَّة بها. وأما الخَلْق –بفتح الخاء- فيمثل صورته الظاهرة، والجانب المادي في شخصيته، وأوصافها ومعانيها.
- يقول الراغب رحمه الله: "الخَلْق والخُلُق في الأصل واحدٌ ... لكن خُصّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة".
- ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلانٌ حسنُ الخُلُق والخَلْق. أي: حسن الباطن والظاهر. فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدرك بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئةٌ وصورةٌ: إما قبيحةٌ، وإما جميلةٌ. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر.

والخُلُق اصطلاحاً: "حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خيرٍ أو شرٍ بسهولةٍ ويسرٍ من غير حاجةٍ إلى فِكْرٍ و رَوِيَّةٍ".

- **ومعنى: (حالٌ):** أي هيئةٌ أو صفةٌ للنفس الإنسانية. وبهذا الاعتبار يقال: فلانٌ خُلُقه حميدٌ.
- **و(راسخةٌ):** أي؛ ثابتة بعمق. وهو ما يعني أن الأفعال تتكرر من صاحبها على نسقٍ واحدٍ حتى تصبح عادةً مستقرةً لديه. ومن ثَمَّ كان مَنْ يُنفق المال مرةً أو مرتين أو ثلاثٍ على المحتاجين لا يوصف بخُلُق السخاء والجود، بل لابد من تكرره منه مراراً بحيث يُصبح عادةً له.
- **و(من غير حاجةٍ إلى فِكرٍ ورَوِيَّةٍ):** أي من غير تَكَلُّفٍ، أو مجاهدةِ نفس، أو قيامٍ بمحاكمات عقلية، بل تصدر بسهولة ويسر، وبطريقة تلقائية.
- ✓ **وعلى هذا المعنى يُحمل قول الله سبحانه في مدح نبيه محمدﷺ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: 4).**
- ولكن قد يُطلَق الخُلُق مجازاً على نَفْسِ المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني فنقول: العِفَّة خُلُق، والصِّدق خُلُق، والحياء خُلُق، بقطع النظر عن الفاعل، وعلى هذا المعنى يُحمل قول الرسولﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق). أي لأتمم صالح القواعد المنظمة لسلوك الإنسان.
- وقد يُطلق أيضاً -من باب المجاز- على الفعل الصادر من خُلُق الإنسان، كالشجاعة الصدرة منه أو السخاء الصادر منه. يقول الراغب: "جُعل الخُلُق مرةً للهيئة -الصفة- الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر، وجُعل مرة اسماً للفعل الصادر عنه باسمه، وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة، فإن ذلك يقال: للهيئة والفعل جميعاً".

ثانياً- موضوع علم الأخلاق:

ذكرنا أن الخُلُق يستقر في النفس الإنسانية، إلا أنه ليس الوحيد الذي يستقر فيها، فهناك إلى جانبه أيضاً الغرائز والدوافع كالحاجة إلى الطعام والنكاح، وكحب الولد والمال، وقد يلتبسان ببعضهما فلا يميز كثيرٌ من الناس بين ما هو من قبيل الخُلُق وما هو من قبيل الغرائز والدوافع، ومن ثَمَّ حَسُنَ التمييز بينهما، ولعل أهمَّ ما يُميزهما عن بعضهما، أن الغرائز والدوافع لا توصف بالخير أو الشر، ولا تستوجب لصاحبها مدحاً ولا ذماً، كما لا يترتب على إشباعها ثوابٌ أو عقابٌ، بخلاف الخُلُق فإنه يتعلق بالأعمال التي توصف بالخير أو الشر، وبالحسن أو القبح، ويستوجب لصاحبه مدحاً أو ذماً، ويُعرضه للثواب أو العقاب.

- فإنْ حَصل ومُدِحَ الإنسانُ أو ذُمَّ على تعاطيه مع بعض تلك الغرائز أو الدوافع، لم يكن المقصودُ نفسَ الفعل، وإنما طريقة تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة. فمَنْ يأكل لدفع الجوع عن نفسه لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل (لأنه يُشبع حاجة فطرية)، وإنما يُمدح أو يُذمُّ على طريقته في الأكل. فإن أكل مما يليه، وبهدوءٍ، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمِد على فعله هذا. وإن أكل بشراهةٍ ... ذُمَّ على فعله. وهكذا يُقال في بقية الغرائز.

ثالثاً- أقسام الخُلُق:

يمكن تقسيم الخُلُق باعتبار منزلته في الشرع، إلى: خُلُق محمود؛ ينتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ **جميلةٌ** عقلاً وشرعاً. **وخُلُق مذموم؛** ينتج عنه أقوالٌ وأفعالٌ **قبيحةٌ** عقلاً شرعاً.

كما يمكن تقسيم الخُلُق باعتبار دور الإنسان فيه إلى:

- ✓ **أخلاق فطرية،** لا دور للإنسان في اكتسابها، بل هي هبةٌ من الله تعالى، جَبَلَه عليها. كحال الأنبياء عليهم السلام الذين اصطفاهم الله، وجعلهم القدوة الصالحة خُلُقاً وسلوكاً وأدباً.
- وهناك مِن غير الأنبياء أيضاً مَنْ يمُنُّ اللهُ عليه ببعض الصفات الخُلقية الحميدة، كما في حديث أشج عبد القيس حيث قال له النبي ﷺ : (إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ). قال يا رَسُولَ اللَّهِ: أنا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا، أَمْ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قال: (بَلْ اللهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا) قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي جَبَلَنِي على خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله وَرَسُولُهُ". وعبد القيس قبيلة، والأشج رئيسها، واسمه المنذر بن عائذ. والحِلم: العقل. والأناة: التثبتُ وتركُ العجلة.
- ✓ **أخلاق مكتسبة،** يكتسبها الإنسان بالتدريب والممارسة، يقول ﷺ: (إنما العلم بالتعلم)، ويقول: (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله). البداية من العبد، ثم يأتيه التوفيق من الله.

رابعاً: أمهات الأخلاق:

حوى القرآن الكريم والسنة المطهرة على أمهات الأخلاق والفضائل جميعها في نصوصٍ جامعةٍ موجزة، نشير فيما يأتي إلى نماذج منها.

- من هذه الآيات الجامعة للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل:90). قال ابن مسعود ﷺ: "ما في القرآن أجمعُ لخيرٍ ولا لشرٍ من آية في سورة النحل {إن الله يأمر بالعدل}، وقال الحسن البصري رحمه الله: "لم تترك هذه الآية خيراً إلا أمرت به، ولا شراً إلا نهت عنه".
- ومنها قوله تعالى: {وتَعَاوَنُوا على البِرِّ والتَّقْوى، وَلا تَعَاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدوَانِ} (المائدة:2). والبر اسمٌ جامعٌ لكل طاعةٍ وخيرٍ، والإثم اسمٌ جامع لكل معصية وشر. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "يتعاونون على الصدق والعدل والاحسان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونصر المظلوم، وكل ما يحبه الله ورسوله، ولا يتعاونون لا على ظلمٍ، ولا عصبيةٍ جاهليةٍ، ولا اتباع الهوى، بدون هدىً من الله".
- ومن الأحاديث النبوية الجامعة لأمهات الأخلاق قوله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فإن الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسُوا ولا تَنَافَسُوا ولا تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً). وقولهﷺ: (ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مَالٍ، وما زَادَ الله عَبْداً بِعَفْوٍ إلا عِزًّا، وما تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلا رَفَعَهُ الله).

☒ **وقد أرجع كثيرٌ من العلماء أمهاتِ الأخلاقِ وأصولها إلى أربعةٍ هي:**

الحكمةُ والشَّجاعةُ والعِفَّةُ والعدلُ، وقالوا: إن ما سواها يندرج فيها، وهي بمثابة فروعٍ لها.

- ✓ **ويعنون بالحِكمة:** حالاً للنَّفسِ بها يُدْرَكُ الصَّوابُ من الخطأ.

- ✓ **وبالعدل:** حَالاً للنَّفس وقوةً بها تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما في الاسترسال والانقباضِ على حسب مقتضاها.
- ✓ **وبالشَّجاعة:** كونَ قوَّةِ الغضَبِ مُنقادَةً للعقل في إقدامها وإحجامها.
- ✓ **وبالعفَّة:** تأدّبَ قوَّة الشَّهوة بتأديب العقل والشَّرع.

- فيندرج مثلاً في **خُلُق الحكمة "**حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الرأي، وإصابة الظن، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس، وينتج عن إفراطها –زيادتها عن الحد الوسط- المكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها البله والحمق**".**
- ويندرج في **خُلُق الشجاعة "**الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد، وينتج عن إفراطها –زيادتها- التهور والصلف والتكبر والعجب، وعن تفريطها -التقصير فيها- المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس**".**
- ويندرج في **خُلُق العِفة "**السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع، وينتج عن ميلها إلى الإفراط أو التفريط الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والعبث والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء**".**

خامساً: مكانة الأخلاق في الإسلام:

تمثل الأخلاق جوهر رسالة الإسلام، ونصوص الشرع في الأمر بالفضائل والنهي عن الرذائل تصل بها إلى أعلى درجات الإلزام، وترتب عليها أعظم الجزاء في الدنيا والآخرة. يقول الرسول ﷺ: (الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة. والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار)، ويقول: (دخلت امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعتها تأكل من خشاش الأرض). وبلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أثنى على نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم، اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه.

بل إن الله سبحانه أخبر بأن الغاية من بعثة نبيه ﷺ أخلاقية، وذلك بتزكية نفوس المؤمنين وتطهيرها، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (الجمعة: 2)، وكذلك أخبر الرسول ﷺ بأن الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، فهو ﷺ المتممُ والمكمل لرسالات من سبقوه من الأنبياء عليهم السلام، وما بُعثوا به من القيم والفضائل.

مكانة الأخلاق بين علوم الشرع:

تمثل الأخلاق إحدى الشعب الأربع لعلوم الشرع **(عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق).** وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات تحت اسم الشريعة، فقالوا**: (عقيدة، وشريعة، وأخلاق).**

وهذا التقسيم إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في كل شعبة، وإلا فإنها لا تنفك عن بعضها، بل هي متداخلة متعاضدة كالبنيان يشد بعضها بعضاً.

- ففي **مجال العقائد** نجد أن الإسلام يربط بين الإيمان والأخلاق ربطاً محكماً، فيجعل حُسْن الخُلق علامة كمال الإيمان، فيقول ﷺ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً)، ويعتبر التوحيد –الذي هو أساس الإيمان- من باب "العدل" المصنف في الفضائل الخُلُقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم"، المصنف في الرذائل الخُلُقية، فيقول سبحانه على لسان لقمان: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان:13)، لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها!
- بل إن القرآن الكريم اعتبر الكفر بكل أنواعه ظلماً، فقال تعالى: {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة:254).
- وفي **مجال العبادات،** نجد أن أمهاتها ذات أهداف أخلاقية جليةٍ، نصَّ عليها القرآن بوضوحٍ.

- قال تعالى في شأن الصلاة وهي الأهم من بين العبادات: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ} (العنكبوت: 45). أي أن الصلاة تعين على الخُلُق القويم، وتسهم في تربية الضمير على الابتعاد عن الرذائل، كما أنها تعين المسلم على التحلي بالصبر في مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(البقرة: 153).
- وفي **شأن الزكاة** قال تعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} (التوبة:103)، فجعل الغاية منها تطهير النفس وتزكيتها، وهما الأساس في الأخلاق.
- وفي **شأن الصوم** قال تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة: 183)، فجعل الغاية منه إدخال صاحبه في سلك المتقين.
- وفي **شأن الحج** قال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ} (البقرة: 197). فجعل الغاية منه تدريب المسلم على ضبط جوارحه. وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها، سواءٌ في ميدان الإنتاج، أو المبادلة، أو التوزيع، أو الاستهلاك.
- ففي **مجال الإنتاج** أوجب الإسلام أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} (البقرة: 219)، وقال رسول اللَّهِ ﷺ (لَعَنَ الله الْخَمْرَ وَشَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إليه). فبين أنه يحرم إنتاجه على الرغم من منافعه المادية وذلك لضرره، ومثله الميسر وكُلُّ مُحَرَّم.

- وفي **مجال التبادل** يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب، وإنفاق السلعة بالحلْف، واستغلال حاجة الآخرين، ففي الحديث: (لا يحتكر إلا خاطئ) أي آثم. وفيه أيضاً: (مَنْ غشنا، فليس مِنَّا)، وفيه: (الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ).

- وفي مجال الملكية، يمنع الإسلام من تملك ثروةٍ بطريق غير مشروع، أو أخذ ما ليس بحق.

- وفى **مجال التوزيع** يأمر الإسلام بالعدل بين الأولاد في العطية. يقول ﷺ: (اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بين أَوْلَادِكُمْ)، كما يضع الإسلام نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث، والصدقات المفروضة، والغنائم.

- وفي **مجال الاستهلاك** والإنفاق يأمر بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} (الإسراء:29)، وقال أيضاً: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} (الأعراف:31).

- وفي **مجال السياسة**، نجد أن الإسلام قد ربط السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب الدنيئة للوصول إلى الغايات، مهما كانت تلك الغايات نبيلة. ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة". وبنى سياسته على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود. قال تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ من قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ على سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحبُّ الخائنينَ} (الأنفال:58)، وقال جل شأنه: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ}(الأنعام:152).

- وفي **مجال الحرب** لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السِّلْم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: 190)، وجعل الإسلام الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير.

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) الذي خُصّ بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر هو:

(أ) الخَلق (بفتح الخاء) (ب) الخُلُق (بضم الخاء واللام)

(ج) الغرائز (د) جميعها صحيح

(2) قد يُطلَق الخُلُق على نَفْسِ المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني وبهذا المعنى ورد :

(أ) قوله تعالى: {وإنك لعلى خلق عظيم} (ب) قول النبي (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)

(ج) كلاهما خطأ (د) كلا هما صحيح

... انتهت المحاضرة الأولى ...

المحاضرة الثانية // أسس النظام الأخلاقي في الإسلام

☒ **تقوم الأخلاق الإسلامية على دعائم وأسسٍ ثلاثةٍ هي:**

1- الأساس الاعتقادي 2- الأساس الواقعي 3- الأساس العلمي.

أولاً - الأساس الاعتقادي: ويُقصد به أن نظام الأخلاق في الإسلام مشيد على أسس من عقيدته المتمثلة في أركان الإيمان، **وخصوصاً الثلاثة الآتية:**

الأول: الإيمان بوجود الله تعالى، وبأنه وحده الخالق للكون وللبَشَر، وخالق الموت والحياة، وبأنه وحده المتصرف فيهم {أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ} (الأعراف: 54)، وبأنه تعالى قد أحاط بكل شيءٍ علماً، وبأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ} (ق:16).

الثاني: الإيمان برسالات الأنبياء والرسل، وبأن الله لم يترك الناس منذ أن خلقهم سُدى، بل هداهم لمعرفته، وعرَّفهم بطريق الخير والشر، وأمرهم باتباع شرائعه، وحذرهم من مخالفة أوامره، وأخبرهم أن من أطاعه فله الرضا والجنة، ومن عصاه فله السخط والنار. قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنا أولئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة:38-39). وقال سبحانه: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس: 8)، ثم الإيمان بأن الشريعة التي أُرسل بها محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران:85)، وقال تعالى: {قُلْ يا أَيُّهَا الناس إني رسول اللَّهِ إِلَيْكُمْ جميعاً} (الأعراف:158). والله سبحانه وهب الإنسان العقل وأنشأه على الفطرة السليمة، وأوجد فيه القوة والقدرة على إدراك الحق والباطل، ومعرفة الخير والشر، ومن ثَمَّ جاء تكليفه باتباع الحق والخير، واجتناب الشر والباطل، وإدراك ما عليه من واجبات أو محرمات.

الثالث: الإيمان بالحياة الأخرى، وأنها إما نعيم، وإما جحيم. فالنعيم لمن اتبع الحق، وفعل الخير. والجحيم لمن اتبع الباطل، وارتكب ما حرم الله. وكلاهما لا يكون إلا بعد حساب دقيق بين يدي الخالق عز وجل يوم القيامة. قال تعالى:{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس:12). وقال جل جلاله: {وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (الأنبياء:47).

- ✓ **أهمية الأساس الاعتقادي:** هذا الأساس الاعتقادي بهذا المفهوم -المنبثق من الإيمان بالله وبرسالاته واليوم الآخر والحساب- في غاية الأهمية، بل هو عماد النظام الأخلاقي الإسلامي. ومن غير هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها، وتتحول إلى مواعظ أو نصائح مجردةٍ يمكن أن تصدر عن أي إنسانٍ.
  - إن ما يدفع المسلم إلى الالتزام بأخلاق دينه وتطبيقها في السر والعلن، إيمانه بأنها من الله، وأنه سبحانه رقيب عليه، وسيحاسبه عليها، وأن اتصافه بالخُلُق الحميد يعني رضا الله والجنة، واتصافه بخلاف ذلك يعني السخط والنار.

ثم بقدر تمكن هذا الأساس من قلب المؤمن، يكون الامتثال والتحلي بالفضائل والقيم.

- يقول الدكتور ألكسيس كاريل: "الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية".
- وأمرٌ آخر يؤكد أهمية هذا الأساس الاعتقادي وهو أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانباً لا يملؤه إلا الإيمان؛ فمن انعدم لديه الإيمان عانى من الفراغ في هذا الجانب، وأحَسَّ بالقلق والاضطراب، كما هو حال الوجوديين

وأمثالهم من الملاحدة ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، حيث نجد القلق والحيرة قد استبدت بأعماق نفوسهم، ولربما أدى ذلك بهم إلى الانتحار، بخلاف المؤمن الذي يكون في طمأنينة ورضا مهما واجهته المصائب والتحديات، وبقدر زيادة إيمانه وتمكنه من قلبه، يكون شعوره بالرضا أعظم، وتسليمه بقضاء الله أتم.

- إن أولئك الوجوديين وأمثالهم -من الملاحدة- لا يعانون فقراً أو حرماناً في الغالب! وإنما يعانون من فقدان الطمأنينة التي يجلبها الإيمان القويم، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ومحسوسٌ، يُقر به جمع كبيرٌ من علماء ومفكري الغرب.

ثانياً - الأساس الواقعي: أقام الإسلام نظامه الأخلاقي على أساس واقعي، وذلك من خلال مراعاة طبيعة الإنسان من جهة، ومراعاة واقع الطبيعة والكون من حوله من جهة أخرى.

فأما مراعاته لطبيعة الإنسان فقد تجلت في نظرته له على أنه مكونٌ من روحٍ وجسدٍ وعقلٍ وشهوةٍ ومشاعرَ وعواطفَ وعلى أن هناك صراعاً بين طبيعته وتكوينه المادي الذي يميل إلى الأرض، فينساق للأهواء والشهوات من جهة، وروحه العلوية التي هي من نفخ الإله، وتدعوه إلى السمو والرقي والمثالية من جهة أخرى.

وقد وضع الإسلام نظاماً دقيقاً للتنسيق بين هاتين الطبيعتين فيه، ووجهه إلى السلوك الذي يليق به بصفته المخلوق الذي كرمه الله، وبصفته الكائن الأشرف على ظهر الأرض، ومن أتباع خاتم الأنبياء والرسل عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة والتسليم.

وأما مراعاة الإسلام للطبيعة فقد تجلت في نظرته الوسطية والواقعية إلى ما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بها.

☒ **وقد جاءت نظرته وسطاً بين نظرتين متطرفتين هما:**

- ✓ **دعوات روحية** تدعو الإنسان إلى مجابهة الطبيعة والاستعلاء عليها، مهما كانت الضغوطات التي تواجهه في الحياة. وقد تجلت هذه الدعوات في فلسفات وأديان انتشرت في بلدان المشرق (كالهند والصين وفارس). وكانت تعتقد بأن الإنسان بقدر ما يستعلي على الطبيعة، ويتنكر لمتطلباتها، سيحقق لنفسه السعادة المنشودة، والسمو الروحي الذي يطمح إليه.
- ✓ **دعوات مادية (للطبيعيين)** تدعو للاستسلام للطبيعة، والانسياق وراءها، والاستجابة لمتطلباتها. وقد تجلت هذه الدعوات في فلسفات انتشرت في بلدان الغرب (الإغريق والرومان قديماً، وأوربا حديثاً وارثة فلسفتهم وحضارتهم)، وتقوم معظمها على إنكار الحياة الآخرة وعلى أنه لا بعث بعد الموت، وعلى أن هذه الحياة هي فرصة الإنسان، ولا ينبغي له أن يفوت على نفسه شيئاً من مُتَعِها!.

☒ **فجاء موقف الإسلام وسطاً بين هاتين النظرتين، وتجلى ذلك في:**

- ✓ **دعوته للإنسان أن يضبط ميوله ورغباته ويوجهها وفقاً للمُثُل والقِيَم والأحكام التي جاء بها الإسلام.** قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ....} (النازعات:37-41)، وأن يكون سيداً على الطبيعة، فيسخر مواردها في عمران الأرض، ونفع العباد. قال تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} {هود:61}. أي طلب منكم عمارتها.
- ✓ **دعوته إلى التأقلم والانسجام مع الطبيعة ومع الواقع الذي يعيشه، فلا يتصادم معه.** قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} (الأعراف: 32)، ويسمى هذا استفهاماً إنكارياً. وفي معنى الآية أيضاً قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (البقرة:172).

❖ إذاً هذا هو موقف الإسلام من الطبيعة، موقفٌ وسطٌ لا ينساق مع الشهوات والأهواء من غير ضوابط ولا قيود، وكذلك لا يتنكر لمتطلبات الجسد وغرائزه ورغباته، بل يلبيها ضمن حدود النفع الذي يعود عليه وعلى المجتمع من حوله.

ثالثاً - الأساس العلمي: أقام الإسلام نظامه الأخلاقي على أسس علمية تتمثل في القوانين الأساسية للحياة البشرية، وهي: **(قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع الإنساني، وقانون الارتقاء العقلي والروحي)** .

☒ **وفيما يلي بيانٌ لكل واحدٍ من هذه القوانين.**

القانون الأول: قانون المحافظة على الحياة: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كلَّ سلوكٍ من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها، سلوكاً أخلاقياً مشروعاً ومطلوباً. كما أنه اعتبر كل سلوكٍ يضاد الحياة أو يعوقها بصورة من الصور، سلوكاً غير أخلاقيٍ ومرفوضاً ومحرماً.

ومن ثَمَّ فقد أمر أتباعه بتعاطي كل أسباب الحياة، من أكل وشرب ونوم وراحة ومركبٍ وسكنى.

كما أمرهم بالابتعاد عن كل ما يمكن أن يُلحق بهم الأذى والضرر، فحرم القتل، وتهديد الآخرين وإخافتهم، والتحاسد والتباغض والتدابر. قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} **(البقرة: 195)**، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (النساء: 29)، وقال ﷺ: (المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ ... بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ المُسْلِمَ كُلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ).

القانون الثاني: تكاثر النوع الإنساني: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كل سلوك من شأنه أن يؤدي إلى إبقاء النوع الإنساني وتكثيره سلوكاً أخلاقياً راقياً ومطلوباً، ومن ثمَّ فقد شرع الزواج، وحث عليه، ففي حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا، فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)، كما حث ﷺ على حسن اختيار الزوجة، فقال: (تخيروا لنطفكم، وانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم)، وحث الآباء على تزويج بناتهم من أناس صالحين، ذوي دين وخلق فقال ﷺ: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلاَّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد).

كما أن الإسلام - من جهة أخرى- منع كل سلوكٍ من شأنه أن يحدَّ أو يعوق استمرار التناسل، كالتبتل والرهبانية والخِصاء، لتصادمه مع بقاء النوع الإنساني وتكاثره. ففي حديث ابن مسعود ﷺ، قال: "كنا نغزو مع النبي ﷺ ليس لنا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك".

القانون الثالث: الارتقاء العقلي والروحي: ويُقصد به أن الإسلام اعتبر كل سلوكٍ من شأنه أن يؤدي إلى السعادة والإقبال على الحياة بمحبة وانشراح، أو كل سلوكٍ من شأنه أن ينمي العقل، ويحافظ عليه، سلوكاً أخلاقياً راقياً.

كما أنه اعتبر كل سلوكٍ يُضاد الحياة السعيدة بأن يجعل الإنسان يعيش في عزلة من الناس أو متشائماً أو قلقاً أو يُضاد العقل بأن يجعله مستسلماً للجهل والخرافات، سلوكاً غير أخلاقي.

ومن ثَمَّ حَثَّ الإسلامُ على العلم وصِلة الرَّحِم، ومحبة الآخرين، والرضا بقضاء الله وقدره فقال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) ، وقال أيضاً: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءٌ شَكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صَبَر فكان خيراً له). فالمسلم يتلقى المصائب بنفسٍ راضية بقضاء الله، وتسليمٍ لأمره، ويعتقد أن قضاء الله خير، وأن الحكمة فيه وإنْ خفي عليه.

كما حرم الإسلام تعاطي المسكرات والمخدرات، وما من شأنه أن يَضُرَّ ببدن الإنسان أو عقله، فقال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} (المائدة:90-91).

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) تقوم الدعوات المادية على :

(أ) الاستسلام للطبيعة (ب) الإيمان بالله

(ج) السمو الروحي (د) جميعها صحيح

(2) يعني قانون الارتقاء العقلي والروحي أن الإسلام اعتبر من السلوك الأخلاقي الراقي كل سلوكٍ من شأنه أن:

(أ) يؤدي إلى الإقبال على الحياة بمحبة وانشراح (ب) يحافظ على العقل

(ج) ينمي العقل (د) جميعها صحيح

... انتهت المحاضرة الثانية ...

المحاضرة الثالثة // خصائص الأخلاق الإسلامية

☒ **تميز النظام الأخلاقي في الإسلام عن غيره من الأنظمة الأخلاقية الوضعية أوالسماوية المحرَّفة بجملة من الخصائص، أهمها:**

أولاً- أنها أخلاقٌ ربانية: فهي ليست أخلاقاً نابعةً من تأملاتٍ فلسفيةٍ، أو اعتباراتٍ نفعيةٍ، أو تجارب تربوية، وإنما هي في أصولها وفروعها مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسولهﷺ. فما من خُلُقٍ حميد إلا ونجد الحثَّ عليه في الكتاب والسنة، وما من خلق ذميمٍ إلا ونجد التحذير منه.

من ذلك إضافة إلى ما سبق في مواضع متعددة:

قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ...} (البقرة: 176- 177).

وقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} (الحجرات: 11- 12)

وقول النبي ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»).

وقوله ﷺ: (أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّلاةِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، قَال: إِصْلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ). أي تحلق الدين كما في بعض الروايات.

والآيات والأحاديث في هذا الشأن أكثر من أن تحصى.

ولا شك أن هذه ميزة متفردة، وفي غاية الأهمية، إذ لا يمكن أن يكون لخُلُق مصدره الإنسان تأثيراً وصدىً على سلوك الناس كالذي يكون مصدره رب العالمين، أو رسولهﷺ المؤيد بوحيه، وقد سبق أن نقلنا عن ألكسيس كارل قوله في الفارق بين الاثنين: "أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية".

ثانياً- أخلاقٌ مرتبطةٌ بالإيمان: الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالإيمان ارتباطاً قوياً وعميقاً؛ بحيث يستحيل الفصل بينهما. والنصوص التي تربط بين الإيمان وحسن الخُلُق كثيرة جداً؛ حتى إنها لتجعل الإيمان، هو نفسه حُسْن الخُلُق، وذلك لأن حُسْن الخُلُق يقتضي أول ما يقتضي شُكر المنْعِم (الإله)، والاعتراف بفضله، والثناء عليه، والوقوف عند حدوده بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وأما التمرد على أوامره ونواهيه، فهو أعظم العقوق، وأفحش الخُلُق.

- يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "حسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه، وهي بجملتها ثمرة حُسْن الخلق، وسوء الخلق، فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حُسْن الخُلق. قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ... وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ...} (المؤمنون: 1- 5)،

- وقال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً... وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ...} (الفرقان:63-67)، من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حُسْن الخُلُق، وفقد جميعها علامة سوء الخُلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده، وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق، فقال ﷺ: (من كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتْ). وقال: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).
- ويقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "الإيمان قوة عاصمة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، ومن ثَمَّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خيرٍ، أو يُنفرهم من شرٍ، يجعل ذلك مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم. وما أكثر ما يقول في كتابه: {يا أيها الذين آمنوا} ثم يذكر بعدُ ما يُكلفهم به، مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} (التوبة:119)، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} (الأحزاب:70) ...وقد وضح صاحب الرسالة ﷺ أن الإيمانَ القوي، يَلِدُ الخُلُقَ القويَّ حَتْماً، وأن انهيار الأخلاق مَرَدُّهُ إلى ضَعف الإيمان، أو فُقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته... فالرجلُ الصفيقُ الوجه، المعوجُ السلوك، الذي يقترف الرذائل غير آبهٍ لأحدٍ، يقول رسول الإسلام في وصف حاله: (الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر) ! والرجل الذي ينكب جيرانه ويرميهم بالسوء، يحكم الدين عليه حكماً قاسياً، فيقول فيه الرسول ﷺ : (والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ والله لَا يُؤْمِنُ) قِيلَ: وَمَنْ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: (الذي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بوائقه)، وتجد الرسول ﷺ عندما يعلم أتباعه الإعراض عن اللغو، ومجانبة الثرثرة يقول: (مَنْ كان يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أو لِيَصْمُتْ). وهكذا يمضى في غرس الفضائل وتعهدها حتى تؤتى ثمارها، معتمداً على صدق الإيمان وكماله".

ثالثاً- أخلاقٌ شاملة: تتنوع الأخلاق الإسلامية وتتسع لتشمل جميع المجالات، **ومن هذه المجالات:**

1- خُلُق مع الله ومع نبيه ﷺ، وذلك بالسمع والطاعة، والتسليم والرضا بما جاء به النبي ﷺ. قال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} (النور:51).

وكذلك بتعظيم شعائر الله من خلال تعظيم كتابه، وتعظيم أنبيائه، وتعظيم بيوته وحرماته. قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ... ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} (الحج:30-32).

وكذلك بالنصح لله ولكتابه ولرسوله. عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ). قال العلماء في بيان معناه: أي أن عماد أمر الدين النصيحة، وتكون لله بتقديم حقه على حق الناس، ولكتابه بتعلُّمه وتعليمه، وتفهم معانيه، والعمل بما فيه، والدفاع عنه، ولرسوله ﷺ بتعظيمه ونصرة دينه، وإحياء سنته بتعلُّمها وتعليمها، والاقتداء به في أقواله وأفعاله، ومحبته ومحبة أتباعه.

2- **خُلُق مع أولياء الأمور**، ويتمثل في طاعة أوامرهم في المعروف، وبذل النصح لهم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ} (النساء:59)، وفي الحديث آنف الذكر: (الدين النَّصِيحَةُ ... لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ). وتعني إعانتهم على ما حُمِلوا القيام به من المسؤوليات، وتنبيههم عند الغفلة، وجمع الكلمة عليهم، ودفعهم عن الظلم بأحسن أسلوبٍ وألطف عبارة.

3- **خُلُق مع عامة المسلمين**، وذلك بأن يعامل المسلم أخاه المسلم بالأخوة والإيثار والنصح والمحبة والتعاون والنصرة والولاية. يقول النبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ ... بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). وفي الحديث آنف الذكر (الدين النَّصِيحَةُ ... لعامة المسلمينَ)، وتعني الشفقة عليهم، والسعي فيما ينفعهم، وكف الأذى عنهم، وأن يُحب لهم ما يُحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

4- **خُلُق مع غير المسلم**، وذلك بأن يتحلى المسلم مع غير المسلم بالعدل والإحسان وحُسْن القول والمعاملة، من ذلك قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة: 8)، وقول النبي ﷺ: (ألا من ظَلَمَ مُعَاهِدًا أو انْتَقَصَهُ أو كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أو أَخَذَ منه شيئا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يوم الْقِيَامَةِ). والمعاهَد هو الذي يعيش في كنف المجتمع المسلم مسالماً.

- ✓ بل إن الله سبحانه حين ذكر صفات الأبرار من عباده، كان فيما أثنى عليهم من صفاتهم أنهم: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} (الإنسان: 8). أي؛ أنهم يقدمون الطعام للأسرى مع حاجتهم إليه، فأثنى على حسن التعامل معهم إلى تلك الدرجة العظيمة.

5- **خُلُق مع الكبير، وخُلُق مع الصغير**، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: (ليس مِنَّا من لم يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا). وقوله: (ليس منا) يدل على عِظم وخطورة هذا الخُلُق الذميم. فهو ليس على أخلاق المسلمين، ولا على نهجهم ومسلكهم في الحياة. وإذا لم يكن على أخلاق المسلمين ومسلكهم، فليحذر من عاقبة أمره، والطريق الذي اختاره لنفسه.

خُلُق مع الوالدين، و خُلُق مع الأبناء والبنات، و خُلُق مع الزوج والقرابة، و خُلُق مع الضيف والمعلم والصديق، و خُلُق مع البهائم والجمادات ... وهكذا.

- ❖ يقول الداعية المعاصر الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "قد تكون لكل دين شعائر خاصة به، تعتبر سمات مميزة له. ولا شك أن في الإسلام طاعات معينة، ألزم بها أتباعه، وتعتبر فيما بينهم أموراً مُقَرَّرةً لا صلة لغيرهم بها، غير أن التعاليم الخُلُقية ليست من هذا القبيل؛ فالمسلمُ مكلَّفٌ أن يلقى أهل الأرض قاطبةً بفضائل لا ترقى إليها شُبهة، فالصدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره، والسماحة والوفاء والمروءة والتعاون والكرم ..الخ. وقد أمر القرآن الكريم ألا نتورط مع اليهود أو النصارى في مجادلات تهيج الخصومات ولا تجدي الأديان شيئاً. قال الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت:46). واستغرب من أتباع موسى وعيسى أن يشتبكوا مع المسلمين في منازعات من هذا النوع الحاد: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} (البقرة:139). وحَدَثَ أن يهودياً كان له دَيْنٌ على النبي، فجاء يتقاضاه قائلاً: إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطْلٌ ! فرأى عمر بن الخطاب أن يُؤدب هذا المتطاول على مقام الرسول، وهَمَّ بسيفه يبغي قتْله. لكن الرسول ﷺ أسكت عمر قائلاً: (أنا وهو أولى منك بغير هذا، تأمره بحُسن التقاضي، وتأمرني بحُسن الأداء)، وقد أمر الإسلام بالعدل ولو مع فاجرٍ أو كافرٍ. قال ﷺ: (دعوة المظلوم مُستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه)، وبهذه النصوص، مَنع الإسلام أبناءه أن يقترفوا أية إساءة نحو مخالفيهم في الدين. ومن آيات حسن الخلق مع أهل الأديان الأخرى ما ورد عن ابن عمر: أنه ذبحت له شاة في أهله؟ فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟. سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه). ويؤكد هذه الحقيقة حديث الرسول ﷺ لقومه وعشيرته، فقد رشحتهم مكانتهم في جزيرة العرب لسيادتها، وتولي مقاليد الحكم بها. ولكن النبي ﷺ أفهمهم ألا دوام لملكهم إلا بالخُلُق وحده. ومن أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة. ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة). إن الخُلُق في منابع الإسلام الأولى من كتاب وسنة هو الدين كله، وهو الدنيا كلها".

فشمول الأخلاق في الإسلام يمتد إلى جوانب الحياة ومكوناتها كلها، ولا يستثني شيئاً.

رابعاً- أخلاقٌ ثابتةٌ: يعني ثبات الأخلاق في الإسلام أن الفضائل الأساسية للمجتمع من حقٍ وعدلٍ وصدقٍ ووفاءٍ وأمانةٍ وعفةٍ وإيثارٍ مرتبطة بأصول الشريعة ونظامها العام، ومن ثَمَّ فهي لا تتغير ولا تتأثر بتغير الظروف الاجتماعية، أو الأحوال الاقتصادية، أو وجوه المصلحة، مهما تبدلت وتغيرت ظروف الحياة، ومهما تقدم العلم والتقنية. **والسبب في ثباتها أمران:**

الأولى: أن الأخلاق الإسلامية مرتبطة بالفطرة البشرية، والفطرة تعني الخِلْقة، وهي **لا** تتغير و **لا** تتبدل، قال تعالى: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} (الروم:30)، وإنما تتغير وتتبدل الممارسات السلوكية المرتبطة بها، فتنحرف نتيجة الظروف والمؤثرات المحيطة بها، كما بينهﷺ بقوله: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)، وقد نبه الرسول ﷺ في كثير من الأمور التي شرعها لنا إلى ارتباطها بالفطرة السليمة، فقال مرة: (خمسٌ من الفطرة)، وقال مرة أخرى: (عشرٌ من الفطرة). يقول الشيخ السعدي في بيان الصلة بين الخُلُق والفطرةمن خلاله شرحه لحديث خصال الفطرة: "الفِطرة: هي الخِلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها؛ على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر ودفعه، وفَطَرهم حنفاء مستعدين، لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه. **وجعل تعالى شرائع الفطرة نوعين:**

الأول: يطهر القلب والروح، وهو الإيمان بالله وتوابعه من خوفه ورجائه، ومحبته والإنابة إليه. قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} (الروم:30) فهذه تزكي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب.

الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار عنه، وهي هذه العشرة، وهي من محاسن الدين الإسلامي؛ إذ هي كلها تنظيف للأعضاء، وتكميل لها، لتتم صحتها وتكون مستعدة لكل ما يراد منها. والنظافة من الإيمان.

- ✓ **والمقصود:** أن الفطرة هي شاملة لجميع الشريعة، باطنها وظاهرها؛ لأنها تنقي الباطن من الأخلاق الرذيلة، وتحلّيه بالأخلاق الجميلة التي ترجع إلى عقائد الإيمان والتوحيد، والإخلاص لله والإنابة إليه، وتنقي الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها. وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية. ولهذا قالﷺ: (الطهور شَطْر الإيمان)، وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (البقرة:222). فالشريعة كلها طهارةٌ وزكاءٌ وتنميةٌ وتكميلٌ، وحثٌّ على معالي الأمور، ونهيٌ عن سفسافها، والله أعلم".

الثانية:أن الأخلاق الإسلامية نابعةٌ من الدين كما أسلفنا من قبل في ذكر الخصائص، وهو سبحانه أعلم بما يصلح أحوال الناس، ويحقق لهم السعادة والخير. قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ} (الملك:14). والدين بمثابة السياج الذي يحافظ على متطلبات الفطرة، ويعزز وجودها، ويحميها من الانحراف.

- ✓ ويترتب على خاصية الثبات هذه أن الأخلاق مختلفةٌ عن التقاليد؛ لأن التقاليد تتغير بين الفينة والأخرى بتغير مسوغات وجودها، وأما الأخلاق فلا تتغير كما أسلفنا.

خامساً- أخلاق الإسلام تجمع بين الواقعية والمثالية:

- ✓ **فأما كونها واقعيةً،** فلأنها عمليةٌ وقابلةٌ للتطبيق، ولا يستعصي على أحدٍ الإتيان بها.
- ✓ **وأما كونها مثاليةً أيضاً،** فلأنها تستجيب لتطلعات مَنْ نفسه أبيةٌ تتوق إلى معالي الأمور، وتسعى للتحلي بالفضائل والقيم، ولا يرضى أن يكون كعامة الناس، ففسح الشارع له في ذلك.

فالإسلام إذاً راعى في تشريعه الأخلاقي استعداداتِ هؤلاء وهؤلاء، ولم يحملِ الناسَ على ما لا يطيقون، أو على ما يمكن أن تَمَلَّه نفوسُهم، وتتقاصر عنه هِمَمُهم. ومن ثَمَّ نجده شرع العدل بأن يصل كل ذي حق إلى حقه، لكنه في الوقت ذاته حثَّ على الإحسان، المتمثل في الصفح والتجاوز، وهو فوق العدل. قال تعالى في تقرير مبدأ العدل والإحسان معاً: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (الشُّورى40)، وقال أيضاً: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} (النحل126). فالشطر الأول من الآيتين يفيد المثلية وهي مقتضى العدل، والشطر الثاني منهما يفيد التجاوز والصفح والصبر، وهو المثالية والإحسان.

ومما يجدر ذكره أن مثالية الأخلاق الإسلامية واقعية، بمعنى أنه يُطيقها معظم الناس.

سادساً- أخلاقٌ وسطٌ: الوسطية سمة الأخلاق الإسلامية، وسمة الأمة المسلمة. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} (البقرة: 143) أي عدولاً خياراً لا غلو ولا تطرف. وحذرنا ﷺ في أحاديث كثيرة من الغلو، فقال ﷺ : (هلك المتنطعون) وكررها ثلاثاً، وقال: (إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ). ويتجلى هذا الاعتدال في تلبية الشرع لمختلف حاجات الإنسان ورغباته، مع ضبطها في نفس الوقت بما يحافظ عليها ويبقيها ضمن دائرة النفع والخير.

☒ **فعلى سبيل المثال نجد أن الإسلام يحث على:**

- ✓ **الحكمة،** وهي فضيلةٌ خُلُقية، وتأتي بين رذيلتين، هما الخِبُّ (أي المبالغة في الاتصاف بالمكر والحيلة وسوء الظن) والبَلَهُ (أي المبالغة في السذاجة والسفه). قال تعالى في الثناء على الحكمة: {يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً} (البقرة: 269).
- ✓ **السخاءُ،** وهو خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: الإسراف والتقتير. قال تعالى في الثناء على عباد الرحمن: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان: 67).
- ✓ **الشجاعة،** وهي خلقٌ كريمٌ ووسطٌ بين رذيلتين هما: التهور أو زيادة الإقدام على الأمور المحظورة التي يوجب العقل الإحجام عنها. قال تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} (البقرة:195). والجُبن أو المبالغة في الخوف والحذر بما تأباه الرجولة والمروءة.
- ✓ **العفة،** وهي خلقٌ كريمٌ، وتأتي وسطاً بين رذيلتي الشره (المبالغة في طلب الشهوة واللذات) والخمود (القصور في الشهوة بحيث لا تدفع صاحبها نحو تحصيل أسبابها).
- ✓ **الحياء،** وهو خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتي الوقاحة وصفاقة الوجه من جهة، والخور والمهانة من جهة أخرى.
- ✓ **التواضع،** وهو خلقٌ كريمٌ، ووسطٌ بين رذيلتي الكِبْر من جهة، والذِّلة من جهة أخرى.

❖ **وهكذا فما من صفة أخلاقية جاء بها الإسلام، إلا وهي وسطٌ بين رذيلتين.**

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) السبب في ثبات الأخلاق الإسلامية أنها:

(أ) مرتبطة بالفطرة (ب) مرتبطة بالأعراف والتقاليد

(ج) قديمة (د) جميعها صحيح

(2) الحياء خلقٌ كريمٌ، ويأتي وسطاً بين رذيلتين هما :

(أ) الوقاحة وصفاقة الوجه (ب) الوقاحة والمهانة

(ج) الخور والمهانة (د) جميعها صحيح

... انتهت المحاضرة الثالثة ...

المحاضرة الرابعة // وسائل اكتساب الأخلاق

الأخلاق قابلة للتغيير والاكتساب: يدَّعي بعض الناس أن الخُلُق كلَّه فطريٌ، ومن جنس الخِلْقَة، و لا يقبل تغييراً، وأنَّ مَنْ يطمعُ في تغييره كمَنْ يطمع في تغيير خَلْق الله تعالى!. وربما استدل بعضهم بقولهﷺ: (خَلَق الله الخَلْق، فلما فرغ منه قامت الرحم..) ، بمعنى أن الله خَلَق الخلْق، وفرغ منه، وقُضي الأمر فلم يعد من مجالٍ للتغيير!. وهذا تصورٌ خاطئٌ، واستدلالٌ باطلٌ من وجوه:

أولاً: أن الحديث وارد في الخَلْق، والكلام في الخُلُق، وهما مختلفان.

ثانياً: وردت نصوصٌ كثيرةٌ في الشرع تحث على التحلي بالخُلُق الحسن، وتَعِدُ بالثواب عليه، وتحذر من الخُلُق السيء، وتتوعدُ بالعقاب عليه، كقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس9- 10)، وقوله ﷺ (وخالِق الناس بخُلُقٍ حَسَن)، وقوله ﷺ: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقّاً، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحاً، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ). ولولا أن تغيير الخُلُق إلى الأحسن ممكنٌ، لما حثَّ عليه الشارع.

ثالثاً: إن التغيير في الأخلاق واقعٌ ملموسٌ ومشاهدٌ، لا يُنكره إلا معاند.

رابعاً: لو لم يكن تغيير الخُلُق ممكناً لبطلت فائدة الوعظ والنصح، والأمر والنهي، ولما جاز عقلاً أن يقال للمرء لِمَ فعلتَ؟ ولِمَ تركتَ؟ ولنتج عن ذلك إبطال دور العقل، أو فائدة التدريب "ولأَدَّى إلى ترك الناس همجاً مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه، بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جداً".

خامساً: إذا كان التغيير في بعض البهائم ممكناً، كانتقال الفَرَسِ الجامح إلى السلاسة، والكلب والصقر بالتعليم والتدريب إلى أن يصطاد لصاحبه لا لنفسه، فكيف يكون ممتنعاً في الإنسان مع وفور عقله؟.

- ولعل شبهة هؤلاء نابعة من الخلط بين ما هو من قبيل الخِلْقة، فلا يقبل التغيير ،كأصل الغضب والغيظ والشهوة، وما هو من قبيل الخُلُق فيقبل التغيير، وهو السيطرة والتحكم في تلك القوى، وتوجيهها للخير من خلال مجاهدة النفس. يقول أحمد بن قدامة: "ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا!. كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه.

☒ويمكن إجمال وسائل اكتساب الأخلاق فيما يأتي:

أولاً- التدريب العملي: لعل أهم الوسائل التي تعين المرء على اكتساب الأخلاق التدريب العملي، وذلك من خلال مجاهدة النفس، وحمْلِها على الأعمال التي يتطلبها الخُلُق المراد اكتسابه، وقد أشرنا قبل قليل إلى أن طباع البهائم تتغير بالتدريب والممارسة وهي لا تعقل، فكيف بالإنسان العاقل؟!. ومن ثَمَّ قال العلماء: إن من أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُق الجود مثلاً، فإن سبيله إلى ذلك تَكَلُّفَ تعاطي فعل الجود -وهو بذل المال- في البدايات، ثم يستمر على ذلك البذل، ويطالب نفسه به، ويُواظب عليه تَكَلُّفاً، مجاهداً نفسه، حتى يُصبحَ ذلك خُلقاً له، وطبعاً فيه، فيتيسرَ عليه، ويصير به جواداً. ومن أراد أن يُحَصِّلَ لنفسه خُلُقَ التواضع وقد غلب عليه الكِبْرُ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدةً مديدةً، يجاهد نفسه فيه، ويتكلفُ إلى أن يصبح ذلك خُلُقاً له وطبعاً فيه، فيتيسر عليه، ويصير به متواضعاً.

ويمكن توضيح ذلك من خلال مثالٍ ملموسٍ من واقع حياتنا، وهو رغبة أحدنا فيأن يصبح (خطاطاً)، فإننا جميعاً نحكم بأن سبيله إلى تحقيق هذه الغاية هو أن يتعاطى الخط، ويواظب عليه مدة طويلة، ويقلد الخطاطين في خطهم، ويتشبه بهم

تَكلُّفاً في البداية، حتى يصير الخطُ الحسَنُ صفةً راسخةً في نفسه، فيصدر منه طبعاً وسجيةً دون تكلف. وكذلك من أراد أن يصبح فقيهاً، فإن سبيله إلى ذلك تعاطي فعل الفقهاء، من كثرة القراءة في كتب الفقه، وتكرار النظر والتأمل فيها، حتى ينعكس منه على قلبه صفة الفقه، فيصير فقيه النفس.

وفي بيان هذا الدور المهم للتدريب العملي ورياضة النفس على الفضائل يقول النبيﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أحَدٌ عطاءً خَيْراً وأوسَعَ مِنْ الصَّبْرِ) أي أن من دَرَّبَ نفسه وحملها على ما يريد، وجد الاستجابة له بمشيئة الله. فالبداية تكون من العبد، ثم يأتيه التوفيق والمعونة من الله تعالى. مَثَلُه في ذلك مثل البدن. "فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً، وإنما يكمل ويقوى شيئاً فشيئاً بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تُخْلَقُ ناقصةً، قابلةً للكمال، وإنما تكمل شيئاً فشيئاً بالتربية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم".

ثانياً- الجليس الصالح والبيئة الصالحة: وهذا أيضاً من أهم الوسائل في اكتساب الأخلاق، ومن ثَمَّ جاءت النصوص الشرعية الكثيرة في الحث على حسن اختيار الأصحاب، والحذر كل الحذر من خُلَّان السوء. قال تعالى: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} (الزخرف 67)، وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} الفرقان(27- 29). وقال ﷺ: (الْمَرْءُ على دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أحدكم من يُخَالِلُ)، والصاحب ساحبٌ كما يُقال، والطبع يسرق من الطبع الخير والشرَّ معاً. ولقد شبَّه الرسول اللهﷺ مجالسة الصالحين والفاسدين ببائع المسك ونافخ الكير، فقال ﷺ: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً). يقول الإمام النووي في تعليقه على الحديث: "في الحديث تمثيله ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجْرُه وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة".

ومما ورد أيضاً في التحذير من أثر البيئة الفاسدة، قول النبي ﷺ: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَط، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ؛ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ). فقد طالبه الرجلُ العالِمُ بتغيير بيئته الفاسدة. قال النووي: "قال العلماء: في هذا استحبابُ مفارقة التائب المواضعَ التي أصاب بها الذنوب، والأخدانَ المساعدين له على ذلك، ومُقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صُحبة أهلِ الخيرِ والصلاحِ والعلماءِ والمتعبدين الورعين، ومنْ يُقتدى بهم، ويُنْتفَعُ بصحبتهم".

ولا شك أن البيئة تزداد خطورة وأهمية كلما كانت ألصق بحياة المرء، وتزداد هذه الخطورة على الخصوص في السني الأول من حياة الولد، حيث تكون مرحلة النشأة والتكوين، ويكون القلب كالمرآة الصافية، فتنطبع فيه المشاهد بسهولة ويسر، وتتمكن منه، ومن ثَمَّ جاء التحذير النبوي من الدور السيء الذي يمكن أن يمارسه الأبوان في انحراف ولدهم عن الحق، فقال ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ).

ثالثاً- القدوة الصالحة: وهذه أيضاً من الوسائل المهمة في تربية الفرد وتنشئته نشأة صالحة، إذ الإنسان بطبعه يميل إلى تقليد غيره ممن يُعجب بهم، فالصغير يقلد الكبير، والضعيف يقلد القوي، والوضيع يقلد الشريف ... وهذا واقعٌ محسوسٌ لا ينازع فيه أحد. وقد قصَّ الله سبحانه علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء السابقين عليهم السلام، وما عانوه من

أنواع الأذى والشدائد في سبيل دعوتهم إلى الله، فما وهنوا، ولا كَلُّوا، ولا مَلُّوا، ولا يئسوا من نصر الله ورحمته، ثم أمر نبيه محمداً ﷺ أن يقتدي بهم فقال: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} (الأنعام:90).

وكذلك قَصَّ الله علينا كثيراً من جوانب العظمة في شخصية الرسول ﷺ (كتعظيمه لله، ومحبته وإخلاصه له، وخشيته منه، ورأفته ورحمته بالعباد ...)، ثم أمرنا بالاقتداء به، فقال عز شأنه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا} (الأحزاب:21).

وقال ﷺ: (اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ). أي اقتدوا بهم وأطيعوهم تهتدوا وترشدوا. وفي حديث آخر: (فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)، أي الزموا طريقتهم وتمسكوا بها فإنهم على الحق المبين.

ولا شك أن مجالات الاقتداء كثيرة ومتنوعة، فهذا قدوةٌ في القوة في الحق، وذاك في الورع، وثالث في السخاء، ورابع في الشجاعة،وخامس في بذل الجاه والسعي في قضاء حاجات الناس.

وإذا ما أردنا أن نغرس الفضائل في أنفسنا أو مجتمعنا، فإن خير وسيلة إليه هي وضع نماذج عملية من سير العظماء بين أيديهم، وذلك لأن:

وجود القدوة الصالحة، والنموذج الطيب، يُعطي الآخرين قناعةً بأن بلوغ هذه الفضائل أمرٌ ممكنٌ، فيندفعُ أكثر إلى التخلق بمثل أخلاقهم.

القدوة الصالحة محل تقدير وإعجاب الناس، وهو ما من شأنه أن يدفع الشخص المحروم من هذا التقدير والإعجاب إلى تقليد القدوة ومحاكاته لعله يصبح يوماً ما مثله، ومع مرور الوقت تتحول هذه المحاكاة إلى خُلُق.

النفس البشرية تتأثر بالأمور العملية أكثر من تأثرها بالأمور النظرية، وإن موقفاً عملياً واحداً ربما يؤثر أكثر من عشر محاضرات نظرية. وإن مما قيل في التأكيد على الأثر البالغ للفعل: "عَمَلُ رجلٍ في ألف رَجُل، أبلغُ من قولِ ألفِ رجلٍ في رجل".

إن أكثر ما يعرفه الناس من سيرة أبي بكر ﷺ، ثباته يوم وفاة النبي ﷺ، وقوله في الناس: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، وموقفه الحازم من المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ.

وأكثر ما يعرفه الناس عن عمر ﷺ شدته في الحق، حتى قال فيه النبي ﷺ (إيهاً يا ابنَ الخَطَّابِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجاً قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجاً غَيْرَ فَجِّكَ).

وأكثر ما يعرفه الناس عن عثمان ﷺ بذله وعطاؤه الكبير في سبيل الله كتجهيزه لجيش العسرة، وشرائه لبئر رومة ووقفه على المسلمين.

وأكثر ما يعرفه الناس عن علي ﷺ شجاعته وإقدامه المنقطع النظير، وأن الله فتح خيبر على يديه عندما أعطاه الرسول ﷺ الراية وقال: "لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْه) فإذا هو عليٌ ﷺ.

وأكثر ما يعرفُ الناس من سيرة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله امتناعه عن القول بخلق القرآن، وتحمله التعذيب والسجن نصرةً للحق حتى قال فيه علي بن المديني رحمه الله: "إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المِحْنة".

ومن هنا فإن من واجبنا إبراز النماذجَ الصالحةَ من أسلافنا، وإحياء سِيَر العلماء الربانيين، والزهاد العابدين، والقادة الفاتحين، والمربين الناجحين؛ لتتحرك الهمم نحو التأسي بهم، والسير على نهجهم، والتخلق بأخلاقهم.

رابعاً- الضغط الاجتماعي: ونعني به المجتمع المسلم، بما يشكله من رقابة على سلوك الأفراد، ويُلزمهم بفضائل الأخلاق. وذلك أن الفرد يعيش مع الناس داخل هذا المجتمع أو ذاك. يحتاجهم في شؤون حياته، ولا يستغني عنهم، ويحتاج منهم التقدير والاحترام. فإن أقدم على تصرف غير أخلاقي، وجد من يُحاسبه على سلوكه ذاك، ويُشعره بأن سلوكه غير مقبول، وأن عليه أن لا يعاوده.

ويوماً بعد يوم، ومع هذه الرقابة من المجتمع، والضغط الذي يشكله على السلوك المنحرف، فإن صاحبه سيهجره، وسيبدله بسلوكٍ مقبول، يجلب له الرضا والاحترام والتقدير ممن حوله، وسينتهي الأمر باستقامة خُلُقه.

والضغط الاجتماعي أعم من البيئة الصالحة التي سبق الحديث عنها!.

إذ البيئة تقتصر على أولئك الذين يعايشهم المرء بشكل مباشر، وبصورة مستمرة كبيته ومدرسته وأصدقائه ومحل عمله.

وأما الضغط الاجتماعي فنعني به المجتمع كله، بمختلف طبقاته وأطيافه وفئاته، ومن خلال مختلف وسائل الإعلام من جرائد ومجلات وقنوات وإذاعات وخطب وحوارات، فيكون مسؤولاً أمامها جميعاً بما تُكَوِّنه من رأيٍ عامٍ من القرَّاء والمستمعين على امتداد البلاد أو العالم الإسلامي لمحاسبة المنحرف.

وهناك نصوصٌ كثيرةٌ من الكتاب والسنة تؤصل لهذه المسؤولية، منها:

قوله ﷺ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.. فاسقون} (المائدة: 78-81)، ثُمَّ قَالَ: كَلاَّ وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً) فالحديث يبين وجوب الاستمرار في إنكار المنكر، واستمرار الضغط على مرتكبه من مختلف أبناء المجتمع حتى يرتدع ويَكُفَّ عن فعله الشائن، وإلا حلَّ بهم ما حلَّ ببني إسرائيل من العقوبة والعياذ بالله.

ومنها قوله ﷺ: (مَثَلُ القَائِمِ في حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ في أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَميعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أيدِيهِمْ نَجَوا وَنَجَوْا جَميعاً). ومعنى القائم في حُدُودِ اللهِ: المدافع عنها. وهو عكس الواقع فيها. فهذا أيضاً يؤكد مبدأ المسؤولية الجماعية، ويشبه أفراد المجتمع بمختلف فئاتهم بالراكبين في سفينة واحدة، يجمعهم مصير واحد، وإذا حلَّ بهم الغرق فلن يستثني أحداً، وسينزل بالجميع، المنحرف لانحرافه، وغيره لسكوته عن الإنكار، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال:25).

خامساً- سلطان الدولة: ونعني به السلطة الحاكمة بما تملكه من قوة ردع، وأجهزة رقابة ومحاسبة. فإنها حين تحاسب المنحرف وتعاقبه على تصرفاته غير الأخلاقية تجعله يكف عنها. وفي ذلك يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ : "إن الله لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ بالقرآن". أي أن بعض الناس قد لا تردعه نداءات كتاب الله، وما فيه من الترغيب والترهيب، لأن الضعف قد استبد بإيمانهم، وأصبحت قلوبهم ميتةً أو قاسية! وهؤلاء إنما يردعهم الرهبة من السلطان، والخوف من العقوبة. ويوماً بعد يومٍ، ومع مرور الزمن، يتحول هذا الامتناع القسري عن فعل المنكر إلى خُلُقٍ لصاحبه.

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) قول النبي ﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ) يدل على أن من الأخلاق :

(أ) ما يتأتى بالتدريب العملي (ب) ما هو فطري

(ج) ما يتأتى بالقدوة الصالحة (د) ما يتأتى بالبيئة الصالحة

(2) يقول الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ : "إن الله لَيَزَعُ بالسلطانِ ما لا يَزَعُ :

(أ) بالأصحاب (ب) بالقرآن

(ج) بالوالدين (د) بالنصيحة

... انتهت المحاضرة الرابعة ...

المحاضرة الخامسة // الإلزام الخُلُقي والمسؤولية والجزاء

يرتبط الإلزام الخُلُقي، والمسؤولية الخُلُقية، والجزاء الخُلُقي، ببعضها ارتباط العلة بالمعلول. فيكون الإلزامَ أولاً، فتترتب عليه المسؤوليةُ، فيلزم منهما الجزاءُ.

☒ وفيما يلي تعريفٌ موجزٌ بكلٍ منها:

أولاً : الإلزامُ الخلقي:

تعريف الإلزام الخُلُقي: الإلزام في **اللغة**: الفرض والإيجاب. وهذا الإلزام يمكن أن يكون مصدره المكلفُ نفسه بأن يُلزم نفسه شيئاً، أو يكون مصدره الشرعُ بمقتضى خطابه بأمرٍ أو نهيٍ. ويسمى تكليفاً.

وعليه فيمكن **تعريف الإلزام الخُلُقي بأنه**: تكليفٌ بتشريع خُلُقي. أو بعبارة أخرى: تكليفٌ صادرٌ من الشرع بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم.

وهذا التكليف أعم من أن يكون جازماً أو غير جازم، وفي جانب الفعل أو الترك. مثال السلوك الخُلُقي المطلوب فعله على سبيل الحتم والإيجاب بر الوالدين. ومثال المطلوب فعله ولكن ليس على سبيل الحتم والإيجاب، إماطة الأذى عن الطريق، وهو المندوب. ومثال المطلوب تركه طلباً جازماً الكِبْر والحسد، وهو الحرام. ومثال المطلوب تركه ولكن ليس على سبيل الحتم أن يشرب الماء في نفس واحدٍ، أو أن يتنفس في الإناء، وهو المكروه.

مصادر الإلزام الخلقي: إن مصدر الإلزام الخُلقي –كغيره من الأحكام الشرعية- إنما هو الله سبحانه، قال تعالى: {إِنْ الحُكْمُ إِلَّا لِلهِ} (يوسف: 40)، وقال جل جلاله: {أَلَا لهُ الخَلْقُ والأَمْرُ} (الأعراف: 54). فالتشريع حقٌ لله وحده، ثم إن الله تعالى أمرنا باتباع نبيه محمد ﷺ، فقال تعالى: {وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} (الحشر: 7)، وقال أيضاً: {قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ} (آل عمران:32). فكان اتباعنا لنبينا محمد ﷺ استجابةً وامتثالاً لأمر الله سبحانه.

وأما ما يذهب إليه بعض فلاسفة الأخلاق من غير المسلمين من اعتبار العقل والضمير مصدراً للإلزام الخُلُقي فهو مردود؛ لأن العقل وإنْ كان يُدرك في كثير من الأحيان الحسن والقبح في الأشياء؛ كأن يدرك أن الصِّدْقَ حَسَنٌ، والكذبَ قبيحٌ، والأمانةَ حسنةٌ، والخيانة قبيحةٌ، وكذلك يشعر الضمير بالراحة عند ممارسة كثير من التصرفات الحسنة كالصدق والعدل، ويشعر بالانقباض والألم عند ممارسة التصرفات السيئة كالكذب والظلم؛ إلَّا أنَّ مناط الثواب والعقاب هو الشرع، وليس العقل أو الضمير. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن العقول والضمائر وإن اتفقت في بعض العناوين العريضة فإنها ستختلف كثيراً في حُكْمها عندما تتجاوز تلك العناوين إلى التفاصيل والتطبيق، فما يراه هذا عدلاً، يراه غيره ظلماً، وما يراه تواضعاً، يراه غيره مذلة ... وهكذا، فكان لابد من مرجع يتم التحاكم إليه عند الاختلاف، ويكون الفيصل في تحديد المفاهيم والضوابط والآثار، فكان هذا المرجعُ والحَكَم هو الشرع.

يُضاف إلى ذلك أن العقول والضمائر بمفردها لن تستطيع الوصول إلى كل شيءٍ، وتُصدِرَ حكمها فيه، ولذلك أمدها الله بنور الوحي ليضيء لها الطريق فتمضي على هدى من الله.

العوامل التي تحمل على الالتزام: هناك جملة من العوامل تحمل المرء على الالتزام، وتعينه عليه، **وهي تنقسم إلى داخلية وخارجية** .

العوامل الداخلية: ويمكن حصرها في أربعة: الإيمان والعقل والفطرة والضمير.

الإيمان: ونعني به الإيمان بالله وبرسالاته وباليوم الآخر، فإن لها أكبر الأثر على الالتزام بالأخلاق الحميدة.

دليل ذلك أن كثيراً من التصرفات السلوكية الحميدة لا يجد المرء لها سبباً ملموساً إلا الطمع بما عند الله سبحانه، كما في مقابلة الإساءة بالإحسان مع القدرة على الرد، والإنفاق على من لا يُنتظر ولا يُتأمَّل منه المقابل، وحرمان المرء نفسه من شيء وإيثار غيره مع شدة حاجته إليه، كما قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً} (الإنسان: 8-9).

يقول ابن القيم رحمه الله: "الإيمان هو روح الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمر بأحسنها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدر قوة الإيمان يكون أمره ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه". وهذا الأمر مشاهدٌ ملموسٌ لا ينكره إلا مكابرٌ معاندٌ.

العقل: وذلك أن الإنسان إذا رأى أن عاقبة فعله ستكون نافعةً ومفيدةً أقْدَمَ عليه، وإذا رأى أنها ستكون ضارةً أو أليمةً أحجمَ عنه. فالعقل كثيراً ما يكون وراء الإقدام على السلوك الخُلُقي الحميد، أو الإحجام عن التصرف المشين. يقول الله تعالى مخبراً عن أهل النار وتعطيلهم لعقولهم وبأنه كان سبب استحقاقهم النار: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك: 10).

يقول ابن القيم رحمه الله: "أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفِطَر استحسان الصدق والعدل والإحسان والبر والعفة والشجاعة، ومكارم الأخلاق، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، ونصيحة الخَلْق، والوفاء بالعهد، وحفظ الجوار، ونصر المظلوم، والإعانة على نوائب الحق، وقِرى الضيف، وحمل الكَلِّ، ونحو ذلك. ووضع في العقول والفِطَر استقباح أضداد ذلك".

الفِطْرة: فقد غرس الله سبحانه في الإنسان الفِطْرة، وجعلها تهفو إلى الإيمان والخُلُق الحميد إذا تركت وشأنها، ولم تتدخل الأطراف الخارجية. فالعفة، والسخاء، والحياء، والصدق، والشجاعة، والحلم، كلها قيم أخلاقية راقية ترتاح لها الفِطَرُ السويةُ، وتأنسُ بها، وتنفر من أضدادها من الخِسَّة، وصفاقة الوجه، والكذب، والجبن، وبذاءة اللسان.

يقول ابن القيم: "والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما أصل السعادة، أحدهما: أنْ خَلَقَهم في أصل النشأة على الفِطرة السليمة، فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها... فإذا تركت النفس وفطرتها لم تُؤْثِرْ على محبة باريها وفاطرها وعبادته وحده شيئاً، ولم تشرك به، ولم تجحد كمال ربوبيته، وكان أحبَّ شيءٍ إليها، وأطوعَ شيءٍ لها، وآثر شيء عندها". يقول الرسول ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء). ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : "واقرؤوا إن شئتم: {فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ} (الرُّوم:30)".

الضمير: (أو ما يسمى بالوازع الديني) ويُقصد به ذلك الشعور الخفي الذي يُحِسُّ به المرءُ في أعماق نفسه، يناديه ويدفعه إلى ممارسة فعلٍ أو الكف عنه. وحين يستجيب لندائه يغمره شعور عارم بالراحة واللذة، بعكس ما لو تجاهله، حيث يشعر بالانقباض والألم النفسي **(أو ما يسمى بوخز الضمير)**، ويلوم ذاته على ذلك التقصير، ولا يريد أن يطلع عليه أحد.

والضمير إنما يتكون في الفرد في أولى سِنِي حياته، من خلال القيم التي تغرس فيه، والثقافة التي ينشأ عليها، والتربية التي يتلقاها، والبيئة المحيطة به، وهنا يأتي دور الدين، ويكون الأساس في نشأة هذا الضمير وصياغته ورعايته. فإذا كان هذا الدور قوياً فاعلاً، جعل من هذا الضمير الخفي، أو الوازع الديني رقيباً على تصرفاته، ودفعه إلى طيب الأفعال والأقوال، ولو لم تكن نصوص الشرع آمرةً بها، وكفته عن الفعل الذي لا يليق، ولو لم تكن نصوص الشرع ناهيةً عنها. ولعل هذا هو المقصود بقول النبي ﷺ(والإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه الناس). فالمقصود صدر المسلم الذي تشرب الإيمان، وتربى على قيمه.

العوامل الخارجية: ويمكن حصرها في عاملين رئيسين:

المجتمع: أمر الله سبحانه جماعة المسلمين بمراقبة سلوك الأفراد داخل المجتمع، والأخذ على يد الشارد منهم، المنحرف عن جادة الحق، ومعاقبته إذا ارتكب محظوراً يستدعي العقوبة ليكون زاجراً له ورادعاً لغيره. كما في قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ} (المائدة:38)، وقوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ} (النور:2)، وقول الرسول ﷺ: (من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

وعليه فإن الأمة كلها مطالبة بأن تراقب أفعال أبنائها وتصرفاتهم، وتأخذ على يد الظالم والعابث، وإلا نال جميعهم شؤم المعصية وشرها، كما قال تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} (الأنفال:25).

السلطة الحاكمة: إن أهم واجبات السلطة الحاكمة (ولي الأمر أو من ينوب عنه) هو حملُ الناسِ على الالتزام بحدود الشرع الحنيف أمراً ونهياً، والتحلي بمكارم الأخلاق، والابتعاد عن الرذائل. وقد عبر عنه الإمام الماوردي رحمه الله بقوله: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا". وحراسة الدين إنما تكون بتطبيق الشريعة، وردع الخارج عليها. وسياسة الدنيا تكون بمنع المنازعات، وقطع الخصومات، وتحقيق العدل بين الرعية، وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

ولا شك أن ولي الأمر لن يستطيع تحقيق ذلك بمفرده، بل لا بد أن يعاونه فيه الوزراء والمسؤولون، وهو المعبر عنهم بالسلطة الحاكمة.

خصائص الإلزام الخُلُقي:

يمتاز الإلزام الخلقي في الإسلام بجملة من الخصائص أهمها:

- ✓ أنه إلزامٌ بقدر الاستطاعة. فلا تكليف إلا بما يُطاق. قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة:286). وهذا مبدأ يقتضيه العدل الإلهي، كما يقتضيه الخُلُق القويم.
- ✓ أنه إلزامٌ بما فيه يُسر وسهولة على الناس. ومن ثَمَّ فلا تكليف بما فيه حرج أو مشقة لم تعتدها النفوس. قال تعالى: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ} (البقرة:185). وقال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} (الحج: 78).
- ✓ أنه إلزامٌ يراعي الأحوال الاستثنائية، كما في إعفاء ذوي الأعذار من العجزة والضعفاء والمرضى عن الجهاد. قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ} (الفتح:17). وكما في الترخص بالتلفظ بالكفر باللسان مع بقاء القلب مطمئناً بالإيمان. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً} (النحل:106).

ثانياً: المسؤولية الخلقية:

تعريف المسؤولية: إذا صدر الإلزام من طرفٍ، نتج عنه بالضرورة مسؤولية الطرف المقابل، وإلا كان عبثاً، ولم يكن إلزاماً.

وقد عُرِّفتْ بأنها: "التزامُ الشخص بما يَصدر عنه قولاً أو عملاً".

أو: تَحملُ الشخصِ النتائجَ المترتبة على ما التزم به من قولٍ أو عملٍ أو تركٍ.

شروط المسؤولية: ليكون الإنسانٍ مسؤولاً عن أفعاله وأقواله، لا بد من توافر جملة شروط هي:

البلوغُ؛ وإلا فلو كان صغيراً فلا تكليف ولا مسؤولية عليه، لقصور فهمه عن إدراك معاني خطاب الشرع، يقول النبي ﷺ: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ).

العَقْل؛ وإلا فلو كان مجنوناً فلا تكليف ولا مسؤولية، لأنَّه لا يَعْقِل أمر الشرع ولا نهيه. وقد مرَّ آنفاً حديث: (رفع القلم عن ثلاث: عن المجنون حتى يفيق).

الاختيار؛ أي أن يكون نابعاً من إرادته، مختاراً فيه؛ وإلا فلو كان مكرهاً لم يتحمل مسؤولية تصرفه؛ لأنه بذلك يكون قد تحول إلى آلة لتنفيذ الفعل، ولا يُنسب الفعل إليه. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالكُفْرِ صَدْراً} (النحل: 106)، فبين أن الإثم مرفوع عن المكره ولو نطق بكلمة الكفر مادام يجد قلبه مطمئناً بالإيمان، وفي الحديث أيضاً يقول الرسول ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عن أمتي الخطأ والنسيَانَ وما استُكْرِهُوا عليه).

النية؛ إذ هي مناط المسؤولية عند الله سبحانه، وقبول العمل مرهون بها، وليس بظاهر العمل، يقول النبي ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)، ويقول الله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} (البقرة: 225). واللغو كقول: لا والله، بلى والله، لا يريد الحلف حقيقة، بل سبقه إليه لسانه. فمثل هذا لا يؤاخذ على يمينه، وإنما يؤاخذ به من يريده، وقد عزم عليه قلبه.

ومن تصدق على فقير، ونيته السمعة والرياء، لم يكن له عند الله شيء.

العلم بما هو مطلوب منه، وبحكمه الشرعي أهو محرم أم واجب أم مباح.

ولا يشترط العلم حقيقة، بل يكفي إمكانية العلم لتتحقق المسؤولية، بأن تكون فرصة معرفة الحكم متاحة له بالتعلم المباشر أو السؤال، فإن قصَّر ولم يسأل ولم يتعلم، كان مؤاخذاً، ولم يُعذر بجهله.

كون العمل مما يطاق؛ وإلا فلو كان فوق طاقته سقطت مسؤوليته، ولم يحاسب عليه،لقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (البقرة: 286).

خصائص المسؤولية:

تتسم المسؤولية في الإسلام بأنها شخصية (أو فردية) بالدرجة الأولى. بمعنى؛ أن الإنسان يتحمل مسؤولية تصرفاته فحسب، دون تصرفات غيره أياً كان، ومهما كانت درجة قرابته. فلو قتل الأب شخصاً كان القصاص عليه دون ولده، وكذلك العكس. ولو شرب الولد خمراً لم يجلد والده عنه، وكذلك العكس. ودليله قول الله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر: 38)، وقوله تعالى: {وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى} (الإسراء: 15).

غير أن هناك مستويات أخرى من المسؤولية ملقاة على عاتق المسلم، منها: المسؤولية التقصيرية عن مَنْ هُم تحت ولايته، كالأب في أسرته، ومدير المدرسة في مدرسته، وضابط الجيش في كتيبته، ومدير الشركة في شركته، وولي الأمر فيما تحت ولايته. يقول ﷺ: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

ومنها ما يمكننا أن نسميها المسؤولية الاجتماعية –أو التكافلية- وهي مسؤولية كل مكلف في المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والأخذ على يد المنحرف. يقول ﷺ : (من رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ).

وتتعدد الجهات التي يمكن لها أن تحاسبنا وأن نكون مسؤولين أمامها، وتتمثل في: المسؤولية أمام الله تعالى، والمسؤولية أمام السلطة الحاكمة، والمسؤولية أمام المجتمع، والمسؤولية أمام نفسه وضميره.

ثالثاً : الجزاء الأخلاقي:

تعريفه: هو المكافأة أو الأثر المترتب على الفعل الأخلاقي. سواءٌ أكان هذا الجزاء ظاهراً كالسجن، أم باطناً كتأنيب الضمير. وسواءٌ أكان في الدنيا، أم في الآخرة.

أنواع الجزاء الأخلاقي:

ذكرنا آنفاً أننا مسؤولين ومحاسبين أمام جهات متعددة، وهي الجهات نفسها التي تكافئ أو تعاقب على السلوك الأخلاقي:

- ✓ **فهناك جزاءٌ رباني في الدنيا أو في الآخرة أو في كليهما.**

ففي حالة الطاعة يكون له من الله سبحانه في الدنيا الرضا والحفظ وتيسير الأمور. قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} (الطلاق: 2- 3). وفي الآخرة يكون له الجنة والكرامة. قال تعالى: {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً} (الكهف: 107).

وفي حالة المعصية والاستمرار عليها يكون له في الدنيا المصائب وضنك العيش. قال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل: 112). وقال تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} (طه: 124). وفي الآخرة يكون له النار. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ} (البيِّنة:6).

- ✓ **وهناك جزاء من السلطة الحاكمة:**

وتتمثل في مكافآتٍ وتكريم في حال الطاعة، وعقوباتٍ في حال المعصية، في حق من ينتهك محارم الله زجراً لهم وردعاً لهم ولغيرهم ممن تسول له نفسه ارتكاب مثل تلك الانتهاكات، وهي إما حدٌ أو تعزير:

والحدُّ: عقوبة نصَّ عليها الشرع في حق من يقترف جرائم معينة، وهي سبعة: الزنا، والسرقة، والقذف، وشرب الخمر، والرِدَّة، والحِرابة، والقصاص.

والتعزير: عقوبة تأديبية على معصية لا حدَّ فيها ولا كفارة، ترك الشرع سلطة تقديرها للقاضي أو لولي الأمر، وتكون دون الحدِّ.

- ✓ **وهناك جزاءٌ من المجتمع:**

ويتمثل في الثناء العطر، والذكر الطيب، والتكريم في حال الطاعة، والتوبيخ والذم في حال التمرد والمعصية.

- ✓ **وأخيراً هناك جزاءٌ نفسيٌ داخلي يلمسه المسلم من نفسه بالرضا عند الطاعة، والألم عند المعصية، وهو ما يسمى برضا الضمير، أو تأنيبه ووخزه.**

وقد أخبر الرسول ﷺ عن ذلك الشعور واعتبره من علامات الإيمان، فقال: (من سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك الْمُؤْمِنُ). وهذا خاص بالمؤمن.

وأما غير المؤمن فلا يبالي بما فعل. يقول عبد الله بن مسعود ﷺ : "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عليه، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ على أَنْفِهِ فقال بِهِ هَكَذَا. قال أبو شِهَابٍ بيده فَوْقَ أَنْفِهِ".

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) تكليفٌ صادرٌ من الشرع بامتثال خُلُقٍ محمودٍ، أو اجتنابِ خُلُقٍ مذموم :

(أ) الإلزام (ب) الجزاء

(ج) المسؤولية (د) جميعها صحيح

(2) يتكون الضمير في الفرد في أولى سِنِي حياته، من خلال :

(أ) التربية التي يتلقاها (ب) الثقافة التي ينشأ عليها

(ج) البيئة المحيطة به (د) جميعها صحيح

... انتهت المحاضرة الخامسة ...

المحاضرة السادسة // جوانب وصور من أخلاق النبي الكريم ﷺ

- مدح الله سبحانه نبيه الكريم محمداً ﷺ في أخلاقه عامة فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: 4)، كما مدح جوانب خاصة من أخلاقه ﷺ، فقال: {لقد جَاءَكُمْ رَسُولٌ من أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رؤوف رَحِيمٌ} (التوبة: 128)، وأخبر سبحانه عن حبه ﷺ للمؤمنين، وحرصه على ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، حتى كان أحرص منهم على أنفسهم، فقال تعالى: {النبي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ من أَنْفُسِهِمْ} (الأحزاب:6).
- زكَّى الله تعالى لسانه فقال: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى} (النَّجم:3)، وزكَّى صدره الشريف، فقال: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} (الانشراح: 1)، وزكَّى هديه ومنهجه القويم فقال: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الشُّورى:52). واختاره أسوةً ومثلاً أعلى للبشرية، فقال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} (الأحزاب:21)، وجعل اتباع هديه ﷺ علامة على صدق محبته تعالى فقال عزَّ من قائل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رحيم} (آل عمران:31)؛ لأنه ﷺ كان تجسيداً عملياً لما جاء به القرآن الكريم من أوامر ونواهي، فكان يرضى لما يُرضي الله، ويَسخط لما يُسخطه، ومن ثَمَّ قالت أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (إن خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كان الْقُرْآنَ). وكان خُلُقُهُ الممدوحُ بالعظمةِ واتِّباعِ القرآنِ، القرآنُ مشتملٌ على الأمرِ باتباعهِ ﷺ فيما جاء من كتابٍ أو سُنَّةٍ".

☒ وفيما يلي نستعرض جوانب وصوراً من أخلاقه ﷺ:

1- عبادة النبي ﷺ:

- ✓ كان النبي ﷺ أتقى الناس لربه، وأكثرهم ذكراً وشكراً له. تقول عائشة رضي الله عنها: كان نبي اللهﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ الله وقد غَفَر اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقالﷺ : (أفلا أكون عبداً شكوراً).
- ✓ يصف لنا حُذيفة بن اليَمَان ﷺ صورة لقيامه ذات ليلة، فيقول: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعد العَتَمَةِ (أي صلاة العشاء) فقلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي أَنْ أَتَعَبَّدَ بِعِبَادَتِكَ. فَذَهَبَ وَذَهَبْتُ مَعَهُ ... ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَأَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ قَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ سَأَلَ، وَلاَ آيَةِ خَوْفٍ إِلاَّ اسْتَعَاذَ، وَلاَ مَثَلٍ إِلاَّ فَكَّرَ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمُ وَيُرَدِّدُ فِيهِ شَفَتَيْهِ حَتَّى أَظُنَّ أَنَّهُ يَقُولُ وَبِحَمْدِهِ، فَمَكَثَ فِي رُكُوعِهِ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ كَبَّرَ فَسَجَدَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى وَيُرَدِّدُ شَفَتَيْهِ فَأَظُنُّ أَنَّهُ يَقُولُ وَبِحَمْدِهِ، فَمَكَثَ فِي سُجُودِهِ قَرِيباً مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ نَهَضَ حِينَ فَرَغَ مِنْ سَجْدَتَيْهِ فَقَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ثُمَّ اسْتَفْتَحَ آلَ عِمْرَانَ لاَ يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلاَّ سَأَلَ، وَلاَ آيَةِ خَوْفٍ إِلاَّ اسْتَعَاذَ، وَلاَ مَثَلٍ إِلاَّ فَكَّرَ حَتَّى خَتَمَهَا. ثُمَّ فَعَلَ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ كَفِعْلِهِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَمِعْتُ النِّدَاءَ بِالْفَجْرِ. قَالَ حُذَيْفَةُ: فَمَا تَعَبَّدْتُ عِبَادَةً كَانَتْ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْهَا).
- ✓ وكان من شدة خشيته لله يُسمعُ لجوفه وهو يصلي (أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء)، حتى لكأنه يعاين الحساب.
- ✓ وكان يكثر من الصيام، تقول عائشة رضي الله عنها: (كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، ولم أره صائماً في شهرٍ قط أكثر منه في شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلاً).
- ✓ وكان يُكثر من الصدقة فلا يكاد يُمسك على شيء، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (كان رسول اللهﷺ أَجْوَدَ الناس، وكان أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضَانَ حين يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وكان يَلْقَاهُ في كل لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ من الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).
- ✓ وكان مع هذا كله ينظر إلى عبادته وشكره لله، فيرى نفسه مقصراً في جنب الله، فيزداد ذكراً وشكراً وعبادة لله. وكان يقول في بيان ذلك: (إنه لَيُغَانُ على قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ في الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ). والغين هو الغشاوة

الخفيفة أو الفتور. أي أنه ﷺ لكمال عبوديته لله، ولكمال محبته وشكره له سبحانه، كان يرى من نفسه التقصير بمجرد الغفلة أو الفتور عن ذكر الله لأي أمرٍ كان، وكان يَعُدُّ ذلك ذنباً فيستغفر الله منه؛ لأنه –بأبي هو وأمي- كان في حالة ترقٍ دائمٍ من كمالٍ إلى كمال. وكلما ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها، فاستغفر من الحالة السابقة.

2- خلقه ﷺ في الدعوة إلى الله:

- ✓ كانت دعوة النبي ﷺ لجميع الخلق، وكان همه إدخال الهداية إلى قلوبهم، وكان يحزن أشد الحزن لإعراضهم عن الهداية والإيمان، حتى عاتبه الله على ذلك بقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً} (الكهف: 6). أي؛ لعلك يا محمدُ مُهلكٌ نفسكَ وقاتلُها حسرةً وأسفاً على إعراضهم وعدم استجابتهم لدعوتك؟ أي؛ لا ينبغي أن يَعْظُمْ حزنُك وأسفُك بسبب كفرهم.
- ✓ كان ﷺ يُعلم الجاهل والمخطئ والمسيء بأرقِّ أسلوب، وبألطف عبارة. من ذلك:
- ✓ ما رواه أبو أُمامة ﷺ قال: إن فتىً شاباً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا!. فأقبل القوم عليه فزجروه. وقالوا: مه، مه. فقال له: (ادنه). فدنا منه قريباً. قال: (أتحبّه لأمّك؟). قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم). قال: (أفتحبه لابنتك؟). قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لبناتهم). قال: (أفتحبه لأختك؟). قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لأخواتهم). قال: (أفتحبه لعمتك؟). قال: لا والله، جعلني الله فداءك.

- ✓ قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لعماتهم). قال: (أفتحبه لخالتك؟). قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: (ولا الناس جميعاً يحبونه لخالاتهم). قال: فوضع يده عليه. وقال: (اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه). فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء) فلم يُعَنِّفْ ﷺ على الشاب، ولا أغلظ له القول، بل رَفَقَ به، وعلمه من خلال دغدغة عواطفه، وتحريك الغيرة فيه، فإذا به يستجيب. وعن أنس بن مالك ﷺقال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد! فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه، مه. فقال رسول الله ﷺ : لا تُزْرِموه، دعوه. فتركوه حتى بال. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: (إِنَّ هذه الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ من هذا الْبَوْلِ ولا الْقَذَرِ، إنما هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عز وجل وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ). قال: فَأَمَرَ رَجُلًا من الْقَوْمِ، فَجَاءَ بِدَلْوٍ من مَاءٍ فَشَنَّهُ عليه". ومعنى لا تزرموه: لا تقطعوه، ودعوه حتى يُكمل. ثم أقبل عليه النبيﷺ يُعَلِّمُه برفق. ولو عنَّف عليه في الإنكار، لربما كان سبباً في صَدِّه عن دين الله، وحرمانه من الهداية.

- ✓ وفي هذا درس بليغ لكل داعية إلى الله، بأن يرفق بالناس، ويعاملهم باللين، وبأن يفترض فيهم الجهل بالدين، وليس الاستخفاف أو العناد، فيبادر إلى تعليمهم.

3- رحمة النبي ﷺ :

- ✓ كان الرسول الله ﷺرحمةً مهداةً من الله للناس كافة، وذلك بما حمله من هدايةٍ وتشريعٍ، وإرساءٍ لقيم الحق والعدل. قال تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الانبياء:107). بل جعل الله وجوده ﷺ بين ظهراني قومه أماناً لهم من الهلاك في الدنيا على الرغم من بقائهم على شركهم، وما ذلك إلا لكرامته على الله تعالى، قال تعالى: {وَمَا كان الله ليُعذِبَهم وأنت فيهم} (الأنفال:33). كما أنه ﷺ سيكون رحمة للبشرية جميعها في الحياة الآخرة، حيث ستشملهم شفاعته الكبرى لإراحتهم من هول الموقف، وبدء الحساب.
- ✓ وناله ذات مرةٍ أذىً شديدٌ من قومه، فطلب منه بعض أصحابه أن يدعو عليهم، فأجاب بقوله: (إني لم أبعث لعاناً، وإنما بُعثتُ رحمة)، وفي غزوة أُحدٍ كسروا رباعيته، وشجوا رأسه، وسال الدم على وجهه الشريف، ومع ذلك لم يدعُ عليهم، بل كان يمسح الدم عن وجهه الشريف، ويقول لأصحابه: إن نبياً من الأنبياء تعرض لمثل هذا، فلم يقل سوى: (رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

- ✓ وقد بلغ من رحمته ﷺ بأمته أن سأل الله أن يجعل سَبَّهُ ولعنهُ لِمَنْ أغضبه رحمةً، فقال: اللهم إنما أنا بَشَرٌ فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أو سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ له زَكَاةً وَأَجْراً).
- ✓ ومن صور رحمته بأمته أنه ﷺ أمَر مَنْ يؤم الناس في الصلاة بأن يُخفف. جاءه رجلٌ ذات مرة، فقال: إني لأتأخرُ عن صلاة الصبح مِن أجل فلانٍ مما يُطيل بنا. قال أبو مسعود (راوي الحديث): ما رَأَيْتُهُ غَضِبَ في مَوْضِعٍ كان أَشَدَّ غَضَباً منه يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قال: (يا أَيُّهَا الناس إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَمَنْ أَمَّ الناس فَلْيَتَجَوَّزْ، فإن خَلْفَهُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ).
- ✓ ومن رحمته بأمته أن دعا على ولاة الأمور الذين لا يرفقون برعاياهم، فقال ﷺ: (اللهم من وليَ من أمرِ أمتي شيئاً، فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم، فارفق به).
- ✓ ومن صور رحمته ﷺ بكاؤه على ولده إبراهيم عند مماته في مجتمع كان يعيب مثل هذا الأمر، ويعتبره ضعفاً في الرجل. فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وَكَانَ ظِئْراً لإِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذلِكَ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَقَالَ: (يَا ابْنَ عَوْفٍ، إِنَّهَا رَحْمَةٌ)، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرضى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ). فبين ﷺ أن هذا البكاء رحمة، ومما تقتضيه الفطرة السليمة، وأن الممنوع إنما هو السخط من قضاء الله وقدره، وعدم الرضا بأمره!.

4- صِدْقُ النبي ﷺ :

- ✓ كان الصّدق سِمةَ أقوال النبي ﷺ وأفعاله. قال الله تعالى فيه: {وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (الزمر: 33). والذي جاء بالقرآن وآمن به هو الرسول ﷺ وأتباعه الذين آمنوا بما جاءهم به. ويقول النبي ﷺ مخاطباً بعض أصحابه: (قد عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ).
- ✓ يقول الماوردي رحمه الله وهو يسرد بعض خصال النبي ﷺ: "الخصلة السادسة: أنه محفوظ اللسان من تحريفٍ في قولٍ، واسترسالٍ في خبرٍ يكونُ إلى الكذبِ منسوباً، وللصدقِ مُجانِباً. فإنه لم يزلْ مشهوراً بالصدْقِ في خبره فاشياً وكثيراً، حتى صار بالصدق مرموقاً، وبالأمانة مرسوماً. وكانت قريشٌ بأسرها تَتَيَقنُ صِدْقَهُ قبلَ الإسلامِ، فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه، فمنهم من كذَّبَه حسداً، ومنهم من كذَّبه عناداً، ومنهم من كذَّبَه استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولاً. ولو حفِظوا عليه كِذْبةً نادرةً في غير الرسالةِ لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة. ومَنْ لَزِمَ الصِدْقَ في صِغَرِه، كان له في الكِبَرِ ألْزَمَ. ومَنْ عَصِمَ منه في حَقِ نفسِه، كان في حقوقِ الله تعالى أعْصَمَ. وحسْبُكَ بهذا دفعاً لجاحدٍ، ورداً لمعاندٍ".
- ✓ نعم؛ لقد لقبه قومه بالصادق الأمين قبل إعلان دعوته، وقبل إعلامهم بأن الله قد أرسله إليهم. فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت الآية {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} (الشعراء:214)، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي) لبطون قريش، حتى اجتمعوا. فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم كنتم مُصَدِّقي؟) قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} (المسد: 1). فانتزع ﷺ منهم الاعتراف بصدقه، وجعلهم يُقِرُّون به على رؤوس الأشهاد، وأقامَ الحُجة عليهم، ثم أخبرهم بأنه رسولُ الله إليهم، فأبهتهم بذلك! وهذا من عظيم فطنته.
- ✓ ويقول حَبْر اليهود عبد الله بن سلام ﷺ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ، قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ. فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: (أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ). وهذه شهادة حَبْر يهودي، وهم مَنْ هم في تعصبهم ليهوديتهم، واحتقارهم لغيرهم

5- شجاعة النبي ﷺ :

- ✓ كان النبي ﷺ أشجع الناس، ولعل أبرز ما تتجسد فيه شجاعته ﷺ هو مواجهته لقومه وللمشركين من حوله بمبادئ دينه الحنيف، والتي تتعارض مع ما ألفوه وتوارثوه عن آبائهم وأسلافهم. وقد كان ﷺ يعلم علم اليقين أنهم سيسعون لإيذائه بكل أصناف الأذى، وسيعلنون عليه حرباً مفتوحة، يجندون لها كل طاقاتهم، ولكنه لم يأبه بذلك، وصدع بالحق امتثالاً لأمر الله: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} (الحجر: 94)، فجهر بدعوته، ولم يداهن أهل الباطل قط. قال تعالى: {وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} (القلم: 9).
- ✓ يقول عليٌ ﷺ في وصف شجاعة النبي ﷺ: "كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَومُ الْقَومَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدنى إِلى القوم مِنْهُ". ويقول أيضًا: "لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَنَحْنُ نَلُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْساً".
- ✓ ويصف العباس ﷺ مشهد يوم حنين، وحال رسول الله ﷺ فيه، فيقول: "شَهِدْتُ مع رسول اللَّهِ ﷺ يوم حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أنا وأبو سُفْيَانَ بن الْحَارِثِ بن عبد الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فلم نُفَارِقْهُ. وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ على بَغْلَةٍ له بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا له فَرْوَةُ بن نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فلما الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رسول اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ.
- ✓ ويصف العباس ﷺ مشهد يوم حنين، وحال رسول الله ﷺ فيه، فيقول: "شَهِدْتُ مع رسول اللَّهِ ﷺيوم حُنَيْنٍ، فَلَزِمْتُ أنا وأبو سُفْيَانَ بن الْحَارِثِ بن عبد الْمُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فلم نُفَارِقْهُ. وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ على بَغْلَةٍ له بَيْضَاءَ أَهْدَاهَا له فَرْوَةُ بن نُفَاثَةَ الْجُذَامِيُّ، فلما الْتَقَى الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ وَلَّى الْمُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ، فَطَفِقَ رسول اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الْكُفَّارِ. قال عَبَّاسٌ: وأنا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رسول اللَّهِ ﷺ أَكُفُّهَا إِرَادَةَ أَنْ لَا تُسْرِعَ، وأبو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِ رسول اللَّهِ ﷺ. فقال رسول اللَّهِ ﷺ: (أَيْ عَبَّاسُ؛ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ). فقال عَبَّاسٌ -وكان رَجُلًا صَيِّتًا- فقلت بِأَعْلَى صَوْتِي: أَيْنَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ. قال: فَوَ اللَّهِ لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حين سَمِعُوا صَوْتِي عَطْفَةُ الْبَقَرِ على أَوْلَادِهَا. فَقَالُوا: يا لَبَّيْكَ، يا لَبَّيْكَ. قال: فَاقْتَتَلُوا وَالْكُفَّارَ". وفي بعض الروايات أن رجلاً قال لِلْبَرَاءِ بن عَازِبٍ ﷺ: أَفَرَرْتُمْ عن رسول اللَّهِ ﷺ يوم حُنَيْنٍ؟ قال: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ لم يَفِرَّ. إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْماً رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عليهم فَانْهَزَمُوا، فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ على الْغَنَائِمِ، وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ. فَأَمَّا رسول اللَّهِ ﷺ فلم يَفِرَّ. فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لعلى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يقول: (أنا النبي لَا كَذِبْ، أنا ابن عبد الْمُطَّلِبْ).
- ✓ أي أنه ﷺ لشجاعته، وعظيم ثقته بالله تعالى، كان يناديهم بأعلى صوته في اللحظة الحاسمة من المعركة، متحدياً لهم، أنا النبي حقاً، لا أفِرُّ، ولا أزول من مكاني. يُعَرِّفهم بنفسه بأنه ابن عبد المطلب لأن شهرته بذلك كانت أكثر.
- ✓ ومما روي من صور شجاعته ﷺ سبقه لكشف الأخبار عند الفزع. يقول أنس بن مالك ﷺ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ. وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعاً وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: (لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا) قَالَ: (وَجَدْنَاهُ بَحْراً. أَوْ: إِنَّهُ لَبَحْرٌ) قال: وكان فَرَساً يُبَطَّأُ. أي أن الفرس الذي ركبه النبي ﷺ كان معروفاً ببطئه، إلا أن النبي ﷺ يخبر عنه بأنه وجده سريعاً في هذه المرة، ولذلك فقد سبق ﷺ الجميع إلى مصدر الصوت، وأنه ليس هناك ما يخيف. قال النووي رحمه الله معلقاً على الحديث: "وفيه فوائدُ، منها: بيانُ شجاعته ﷺ مِنْ شدةِ عجلته في الخروج إلى العدو قبْل الناس كلهم، بحيث كَشَفَ الحالَ، ورجعَ قبل وصول الناس. وفيه بيانُ عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعاً بعد أنْ كان يَبْطأ. وهو معنى قوله ﷺ : وجدناه بحراً. أي؛ واسع الجري".

6- عفو النبي ﷺ :

- ✓ كان العفو عند المقدرة شيمة النبي ﷺ مع الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، مع الصديق والعدو، ومن أروع الصور التي تجسد فيها عفوه ﷺ ما كان غداة فتح مكة مع أهلها، فلقد آذوه، وآذوا أصحابه أشد الإيذاء، حتى قُتل

بعضهم تحت التعذيب، وطردوا من موطنهم، واستولى المشركون على ديارهم وأموالهم، ومع كل ذلك فإنه ﷺ حين أمكنه الله من رقابهم، عفا عنهم، ولم يوجه لهم كلمة فيها تعنيف أو تجريح!. وقف فيهم خطيباً وقال: (يا معشر قريش؛ ما تقولون؟) قالوا: نقول: ابنُ أخٍ، وابنُ عم، رحيمٌ كريمٌ. ثم أعاد عليهم القول. فقالوا مثل ذلك. قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام: {لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ} (يوسف:92) فخرجوا، فبايعوه على الإسلام.

- ✓ ومن صور عفوه ﷺ ما رواه جَابِرَ أَنَّهُ غَزَا مع رسول اللَّهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ. فلما قَفَلَ رسول اللَّهِ ﷺ قَفَلَ معه، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ في وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رسول اللَّهِ ﷺ، وَتَفَرَّقَ الناس يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ. فَنَزَلَ رسول اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ، وَعَلَّقَ بها سَيْفَهُ، وَنِمْنَا نَوْمَةً. فإذا رسول اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، وإذا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ. فقال: (إِنَّ هذا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وأنا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وهو في يَدِهِ صَلْتًا، فقال: من يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فقلت: الله. فَهَا هو ذَا جَالِسٌ) ثُمَّ لم يُعَاقِبْهُ رسول اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسَ".
- ✓ ومن صور عفوه ﷺ ما كان يوم العقبة. وما لاقاه من مشركي قريس من الصدِّ والإيذاء، فأرسل الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال عليهما السلام، وقال له ملك الجبال: إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الْأَخْشَبَيْنِ (جبلا أبي قبيس والأحمر) لفعلت، وأهلكتهم عن آخرهم. ولكنه ﷺ أبى وقال: (بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله من أَصْلَابِهِمْ من يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً).

7- تواضع النبي ﷺ :

- ✓ تحفل سيرة النبي ﷺ بأروع صور التواضع، وكلها تدل على أنه كان طبعاً له وسجيةً فيه، ولم يكن يتكَلَّفُه. فقد كان ﷺ يكره أن يتميز عن أصحابه بهيئةٍ أو لباسٍ، أو مكان جلوسٍ أو غير ذلك مما يحب أن يتميز به وجهاء الدنيا، وكان إذا دخل الغريب إلى مجلسه سأل أيُّكم محمد؟ لا يعرفه، مع وجوده بين ظهرانيهم.
- ✓ وكان ينهى عن مدحه، وإلقاء ألقاب التفخيم عليه، ويقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله).
- ✓ وكان يُحذر من الكِبْر، ويقول: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ). قال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قال: (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ الناس). وبطر الحق: يعني دفعه وإنكاره ترفعاً. وغمط الناس: يعني احتقارهم. فالكِبر قد يكون في صورة الترفع عن الحق وعدم الاستسلام له، أو في صورة احتقار الناس.
- ✓ ولقد بلغ من تواضعه ﷺ، أن الأَمَة مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ، كانت تَأْخُذُ بِيَدِه فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ، فلا يرجع حتى يقضي حاجتها.
- ✓ وبلغ من رغبته ﷺ في جبر الخواطر أن قال: (لو دُعيتُ إلى ذِراعٍ أو كُراعٍ لَأَجَبْتُ، ولو أُهديَ إلي ذراعٌ أو كُراعٌ لَقَبِلْتُ) والكُراع: ما استدق من ساق الغنم، وهو كناية عن الشيء الحقير. قال ابن حجر: "الحديثُ دليلٌ على حُسن خُلقه ﷺ، وتواضعه وجبره لقلوب الناس".
- ✓ ودُعي ذات مرة إلى خبز شعير، وإهالة سنخة، فأجاب. والإهالة السنخة: تعني الدهن الجامد المتغير الريح من طوال المكث. ودعاه ذات مرة خَيَّاطٌ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ فأجاب. قال أنس: فَذَهَبْتُ مع النبي ﷺ، فَقَرَّبَ خُبْزَ شَعِيرٍ، وَمَرَقًا فيه دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ. فرأيت النبي ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ من حَوَالَيْ القَصْعَةِ. فلم أزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ بَعْدَ يَوْمِئِذٍ". وكان يجلس على الأرض، ويأكل عليها ويحلب الشاة. ويَعُودُ الْمَرِيضَ، وَيُشَيِّعُ الْجِنَازَةَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَكَانَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وكذا في خَيْبَرَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِرَسَنٍ مِنْ لِيفٍ، وَتَحْتَهُ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ.

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) يقول النبي ﷺ : (لا تطروني كما أطرت . . . . :

(أ) النصارى ابن مريم (ب) اليهود ابن عمران

(ج) الفرس كسرى (د) الروم هرقل

(2) في استجابة النبي ﷺ الدعوة إلى خبز الشعير والإهالة السنخة دليل على:

(أ) حيائه (ب) تواضعه

(ج) رحمته (د) جميعها صحيح

... انتهت المحاضرة السادسة ...

8- زهد النبي ﷺ :

- ✓ كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة. خَيَّرَهُ الله تعالى بين أن يكون ملكاً نبياً، أو يكون عبداً نبياً، فاختار أن يكون عبداً نبياً. كان ينام على الفراش تارةً، وعلى النطع (الجلد) تارةً، وعلى الحصير تارةً، وعلى الأرض تارةً، وعلى السرير تارةً بين رماله، وتارةً على كساء أسود. وكان فراشه أدماً، حشوه ليف، وكان له مِسحٌ (لباس من شعر أو ثوب خشن) ينام عليه، يثنى بثنيتين، وثني له يوماً أربع ثنيات، فنهاهم عن ذلك وقال: (ردوه إلى حاله الأول، فإنه منعني صلاتي الليلة).
- ✓ وروى أنس بن مالك ﷺ قال: "دخل عُمَر وناس من الصحابة، فانحرف النبي ﷺ، فرأى عُمَر أثر الشريط في جنبه، فبكى. فقال النبي ﷺ: (ما يُبكيك يا عمر؟ قال: ومالي لا أبكي وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا، وأنت على الحال الذي أرى! فقال يا عمر: (أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة) قال : بلى. قال: (هو كذلك).
- ✓ وكان من زهده ﷺ أن النار لم تكن توقد في بيته في الشهر والشهرين مرة. فعن عُرْوَةَ عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قالت لِعُرْوَةَ: "ابن أُخْتِي: إن كنا لَنَنْظُرُ إلى الْهِلَالِ ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ، وما أُوقِدَتْ في أَبْيَاتِ رسول اللَّهِ ﷺ نَارٌ! فقلت: يا خَالَةُ: ما كان يُعِيشُكُمْ؟ قالت: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ. إلا أَنَّهُ قد كان لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ من الْأَنْصَارِ، كانت لهم مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ من أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينا).
- ✓ وعن ابن عباس ﷺ قال: "كان رسول اللَّهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِيَ الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا، وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً، وكان أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ"، وليس هذا فحسب؛ بل تقول السيدة عائشة: "ما شَبِعَ رسول اللَّهِ ﷺ من خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حتى قُبِضَ".
- ✓ وليس هذا عن قلة، أو لعدم توافر المال بين يديه! بل لسماحة نفسه، وإعراضه عن الدنيا، وإيثاره لغيره على نفسه؛ وإلا فقد عُرِض عليه أن يكون مَلِكاً نبياً كما أسلفنا.
- ✓ وكان ﷺ يشبه إقامته في هذه الدنيا بإقامة المسافر في بلدة نزل بها لبرهة من الزمن، فماذا عساه أن يفعل من أجل إقامته لتلك البرهة من الزمن. يقول عبد اللَّهِ بن مسعود: "نَامَ رسول اللَّهِ ﷺ على حَصِيرٍ فَقَامَ وقد أَثَّرَ في جَنْبِهِ. فَقُلْنَا يا رَسُولَ اللَّهِ: لو اتَّخَذْنَا لك وِطَاءً. فقال: (ما لي وما لِلدُّنْيَا، ما أنا في الدُّنْيَا إلا كَرَاكِبٍ استظل تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا).

9- صبر النبي ﷺ :

- ✓ أخبر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ وأتباعه من المؤمنين بأنهم سيلقون من أعدائهم صنوف الأذى، وأن عليهم مواجهة ذلك بالصبر وبتقوى الله، فهما سلاح المؤمن في مواجهته للشدائد. قال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (آل عمران: 186) وفي آية أخرى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (آل عمران: 120).
- ✓ وبدهي أن يكون حظ النبي ﷺ من الأذى أكبر من حظ أتباعه، وأن تكون حاجته للصبر أشد وأعظم من حاجتهم، ومن ثَمَّ حثَّه الله على مزيد من الصبر، وأخبره بأنه ليس بدعاً من الرسل في ذلك، فقد أوذي مَنْ كان قبله مِنَ الرسل عليهم السلام في سبيل دعوتهم، وعانوا ما عانوا، وكان سلاحهم في مواجهة ذلك الصبر والعزيمة والثبات على الحق، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} (الْأَحْقَاف: 35). وقد امتثل نبينا ﷺ أمر ربه، فكان المثل الأعلى في صبره ومعاناته وتحمله في سبيل الدعوة حتى لقي ربه!

☒ **وفيما يلي صورٌ من تلك المعاناة على يد المشركين والمنافقين والأعراب:**

1- سألت أم المؤمنين عائشة النَّبي ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحدٍ؟ قال: (لقد لَقِيتُ من قومِك ما لَقِيتُ، وكانَ أشدَّ ما لَقِيتُ منهم يوم العَقَبَةِ، إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلالٍ، فلم يُجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستَفِقْ إلَّا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظَلَّتني، فنظرْتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني فقال: إنَّ اللَّه قد سَمِع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك مَلَكَ الجبال لتأمُرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أُطبقَ عليهم الأخشَبين -جبلا مكة: أبو قبيس والأحمر- ؟ فقال النبيُّ ﷺ : بل أرجو أن يُخرجَ اللَّهُ من أصلابهمْ من يعبدُ اللَّهَ وحدهُ، لا يُشركُ به شيئاً). والمقصود بيوم العَقَبَة، عَقَبةٌ عند الطائف –وليس عَقَبَةَ مِنَى المتبادرة إلى الذهن- بدليل قوله ﷺ: (إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبدِ يا ليل) وهم من أكبر أهل الطائف من ثقيف، طلب منهم ﷺ النصر والإعانة على إقامة الدين، فلم يستجيبوا.

ثم اتجه ﷺ صوب مكة، فلما كان بقرن الثعالب –ميقات أهل نجد- إذا بجبريل يناديه كما تقدم في الحديث آنف الذكر.

2- لقي النبي ﷺ في المدينة المنورة من المنافقين أذىً كثيراً، حتى إنهم طعنوا في عرضه، وتولى كِبْر الفرية، الأفَّاكُ الأثيم، رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، فتكلم في زوج النبي ﷺ السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقام رسولُ اللَّه ﷺ وخطب في الناس قائلاً: (مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أذَاهُ في أهلي، فو اللَّه ما علمتُ على أهلي إلَّا خيراً، وقد ذَكَروا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عليه إلَّا خيراً، وما كانَ يَدْخُلُ على أهلي إلَّا معي) فهبَّ بعض أخيار الصحابة –سعد بن معاذ وأسيد بن حضير- وقالوا: نحن نعذرك ونكفيك شره ونقتله، ولكن النبي ﷺ تحمَّل أذاه، وتجاوز عنه، تضحيةً في سبيل الدعوة إلى الله، وتأليفاً للقلوب، وحتى لا يُقال: إن محمداً ﷺ يقتل أصحابه. وأنزل الله في براءة زوجه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة.

3- وقع شجارٌ ذات مرةٍ بين مهاجري وأنصاري، ونادى الأنصاري يا للأنصار، ونادى المهاجري يا للمهاجرين، واجتمعوا للاقتتال، سمع بذلك الرسول ﷺ فتدخل وأنهى الشجار، وانتهت المشكلة، إلَّا أنَّ رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول سمع بالخبر، فاستغله للنيل من الرسول ﷺ والمهاجرين! فقال: أَوَ قد فَعَلُوا! والله لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ، وقال كلاماً بذيئاً فقال عمرُ بن الخطاب ﷺ: دعني يا رسولَ اللَّه أَضرب عنُقَ هذا المُنافق. قال: (دعهُ لا يَتَحَدَّثُ الناس أنَّ محمداً يَقْتُلُ أصحابه).

غير أن هذا الصبر كان إذا انتهكت حقوقه ﷺ، وأما إذا انتهكت حدود الله، فلن تجد إلا الحزم والشدة (مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ) (الفتح:29).

10- مِزاحُ النبي ﷺ :

- ✓ كان من هديه ﷺ أن يمزح مع أصحابه لمؤانستهم، ولإدخال السرور على قلوبهم، وليعلمهم أن في ديننا فسحة. فالنفوس تَمَلُّ وتَسْأمُ، وتحتاج إلى الترويح والترفيه؛ إلا أنه ﷺ "لم يكن يقول في مِزاحه إلا حقاً". ولم يكن يكثر منه؛ لأنه كثرته تُقسي القلب، وتُشغل عن ذكر الله، وعن التفكير في مهمات الدين، وقد تنتهي إلى منازعاتٍ وأحقاد، وتُسقط المهابة والوقار، بل كان يمزحُ على ندرةٍ ولمصلحةٍ، أو لتطييبِ نفس المخاطَب ومؤانسته.

☒وفيما يلي صورٌ منها :

١ -وردَ أن امرأةً عجوزاً قالت: "يا رسول الله؛ ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال لها النبي ﷺ: (يا أُم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز) فَولَّتْ تبكي. فقال: (أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز. إن الله تعالى يقول: {إِنّا أَنشَأْنَاهُنّ إِنشاءً فَجَعَلْنَاهُنّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً} (الواقعة: 35–37).

٢ -وعن أنس ﷺ أنَّ رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله احمِلْنا على بعير. فقال: (أحْمِلُكُمْ على وَلَدِ الناقةِ). قال: وما نَصْنَع بولدِ الناقةِ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: (هل تَلِدُ الإبلَ إلا النُّوقُ؟). أي أن ذهن السائل انصرف لدى

سماعه (ولد الناقة) إلى أن الرسول سيعطيه بعيراً صغيراً لا يصلح للركوب، فاستغرب قائلاً: وماذا سأصنع بالصغير؟ فنبهه الرسول ﷺ إلى أن الكبير أيضاً ولد الناقة، وإلا فمن أين أتى؟.

٣ - عن أنس أن رجلاً من أهل البادية يقال له: زاهر بن حرام ،كان يُهدي إلى النبيﷺ الهدية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج. فقال رسول الله ﷺ : (إن زاهراً بادينا، ونحن حاضروه). قال: فأتاه النبيﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني. من هذا؟ فالتفت إليه، فلما عرف أنه النبيﷺ جعل يلزق ظهره بصدره. فقال رسول الله ﷺ : (من يشتري هذا العبد؟) فقال زاهر: تجدني يا رسول الله كاسداً. قال: (لكنك عند الله لست بكاسد). أو قال ﷺ : (بل أنت عند الله غال).

11- حياؤه ﷺ :

- ✓ يقول النبي ﷺ : (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ). أي؛ أن لكل دين طبعاً وسجيةً، وطبع هذا الدين وسجيته التي بها قِوامُه وجَمالُه هو الحياء.
- ✓ وقد وُصِفَ ﷺ بأنه كان شديد الحياء، حتى قيل فيه كان "أشدَّ حياءً من العَذْرَاءِ في خِدْرِها، وكان إذا كَرِهَ شيئاً عُرِفَ في وجهِه". والخِدر: الستر أو الخلوة. وحياء العذراء في الخلوة يشتد أكثر مما لو كانت في غير خلوة، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها، وكان ﷺ لا يواجه أحداً أو يصارحه بما يكرهه منه لشدة حيائه، بل كان يتغير وجهه، فيفهم أصحابه كراهيته لذلك الأمر.
- ✓ ولم يكن ﷺ يوجه الكلام لأحدٍ بشكل مباشر، أو يسميه باسمه إذا بلغه عنه ما يكرهه، بل يُبهم ويُعمم، فيقول: ما بال أقوامٍ يصنعون كذا وكذا. لئلا يفضحه أو يجرح مشاعره.
- ✓ روى أنس ﷺ أنه: لما تَزوجَ الرسولُ ﷺ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ، دعا القومَ فَطَعِموا، ثُمَّ جَلَسوا يَتَحَدَّثُونَ، وإذا هو كأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ للقيامِ، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قامَ؛ فلما قامَ، قامَ مَنْ قامَ، وقعَدَ ثلاثَةُ نَفَرٍ، فجاءَ النَّبِيُّﷺ ، لِيَدْخُلَ، فإذا القومُ جلوسٌ؛ ثُمَّ إنَّهُم قامُوا، فانطلقتُ فجئْتُ فأخبرْتُ النبي ﷺ أَنَّهُم قد انطلقُوا؛ فجاء حتَّى دخلَ، فذهبتُ أدخُلُ، فألقى الحجاب بيني وبينه؛ فأنزل الله قوله تعالى: {يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ} (الأحزاب:53).
- ✓ غير أن حياءه ﷺ لم يكن يمنعه من قول الحق والغضب له؛ لأن الحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بحقوق الله أو العباد ليس بحياء في الحقيقة، بل هو عجز ومهانة.

12- عدل النبي ﷺ :

- ✓ العدل هو المساواة في المكافأة في خيرٍ أو شرٍ. والإحسانُ مقابلةُ الخيرِ بأكثر منه، والشرِ بتركه أو بأقل منه.
- ✓ أو بتعبير آخر: العدلُ هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له. والإحسانُ أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له. فالإحسان فوق العدل. والعدل واجب، والإحسان مندوب.
- ✓ وكان نبينا ﷺ المثل الكامل في الأمرين معاً. العدل فيما يتعلق بإنصاف غيره من نفسه، أو بإنصاف بعضهم من بعض، والإحسان فيما يتعلق بالانتصاف لنفسه.
- ✓ روى أبو سعيدٍ الخدْري ﷺ قال: بينا نحن عندَ رسول اللَّه ﷺ وهو يَقْسِمُ قَسْماً، أتاهُ ذو الخويْصِرَةِ –وهو رجُلٌ من بني تميمٍ- فقال: يا رسول اللَّه اعدِلْ. فقال: (ويحك ومَنْ يَعْدِلُ إذا لم أعدلْ. لقد خِبْتَ وَخَسِرْتَ إنْ لم أكُنْ أعدلْ). فقال عُمر ﷺ : يا رسولَ اللَّه ائذن لي فيه أضرِبْ عُنُقَهُ. فقال رسولُ اللَّه ﷺ : (دَعهُ فإنَّ له أصحاباً يَحْقِرُ أحدكم صلاتهُ مع صلاتهمْ، وصيامَهُ مع صيامهم، يقرؤون القرآنَ لا يجوزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ من الإسلام كما يَمْرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ).
- ✓ ولما سرقت المرأة المخزومية أهمَّ قريشاً شأنها، فقالوا من يُكَلِّمُ رسول اللَّه ﷺ؟ ومَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أسامةُ حِبُّ رسول اللَّه ﷺ ! فَكَلَّمَ رسولَ اللَّه ﷺ ، فقال: (أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللَّه؟!) ثُمَّ قام فَخَطَبَ قال: (يا أَيُّها الناس؛ إنما

ضَلَّ من كان قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ. وأيم اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا). فلا محسوبيات ولا طبقات ولا خصوصيات أمام شرع الله، بل الكل متساوٍ.

- ✓ وكان أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ –من صالحي الأنصار ونقبائهم- يُحَدِّثُ قَوْمَه ذات مرة ويُضْحِكُهُمْ بمزاحه، والنبيﷺ معهم في المجلس، فطَعَنَهُ النبي في خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ. فقال: أَصْبِرْنِي (أي؛ أقدني من نفسك). فقال: (اصْطَبِرْ). قال: إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصاً، وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ. فَرَفَعَ النبي ﷺ عن قَمِيصِهِ. فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ (أي؛ بطنه فوق مشد الإزار). قال: إنما أَرَدْتُ هذا يا رسول اللَّه".
- ✓ وروي مثله يوم بدر مع سواد بن غزية حيث طعنه الرسولﷺ في بطنه بالسهم وقال: (استو يا سواد). فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني!. فكشف رسول اللهﷺ عن بطنه، فقال: (استقد). قال: فاعتنقه فقبل بطنه. فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله حضر ما ترى (أي؛ المعركة)، فأردت أن يكون آخر العهد بك، أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول اللهﷺ بخير.

13- أخلاق النبيﷺ مع أهله :

- ✓ يقول النبي ﷺ : (خيركم خيركُمْ لِأهله، وأنا خيركُمْ لأهلي). فكان خير الناس لأهله.
- ✓ ذكرت السيدة عائشة رضي اللَّه عنها أنَّها كانت مَعَ النَّبي ﷺفي سَفَرٍ وهي جَارِيةٌ، فقال لأصحابه: (تَقَدَّمُوا). فَتَقَدَّمُوا. ثُمَّ قال: (تَعَالِ أُسَابِقْكِ). فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ على رجلي، فلما كان بَعْدُ، خَرَجْتُ أيضاً مَعَهُ في سَفَرٍ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: (تَقَدَّمُوا). ثُمَّ قال: (تَعَالِ أُسَابِقْكِ). ونَسِيتُ الذى كان، وقد حملتُ اللَّحم، فقلت: وكيف أُسَابِقُكَ يا رسول اللَّه وأنا على هذه الحال؟ فقال: (لَتَفْعَلِنَّ). فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقني فقال: (هذه بتلك السَّبْقَةِ).
- ✓ وتروي السيدة عائشة أم المؤمنين أيضاً فتقول: "والله لقد رأيت رسولَ اللَّهﷺ يقومُ على باب حُجْرَتِي، وَالْحَبَشَةُ يَلعبونَ بِحِرَابِهِمْ في مسجد رسول اللَّه ﷺ ، يَسْتُرُني بردائه لكي أنظرَ إلى لَعِبِهِمْ، ثُمَّ يَقُومُ من أجلي حتى أكُونَ أنا التي أنصَرِفُ، فاقدروا قَدْرَ الجارِيةِ الحديثة السِّنِّ حريصةً على اللَّهو).
- ✓ وحين سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن ما كان النبيﷺ يصنعُ في بيته؟ أجابت: "كان يَكُونُ في مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ-، فإذا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إلى الصَّلَاةِ". وهذ كله من تواضعهﷺ، ورغبته في أن يخدم نفسه، ولا يكون عبئاً على أهله.
- ✓ وكان من حبه ووفائه الشديد لزوجه خديجة رضي الله عنها يُكثر ذكرها بعد وفاتها، ويكثر من الثناء عليها، وكان يَصِل صاحباتها إكراماً لها حتى إنه كان يذبح الشاة ويفرقها بين صديقاتها. تقول السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها "ما غِرْتُ على أَحَدٍ من نِسَاءِ النبيﷺ ما غِرْتُ على خَدِيجَةَ، وما رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كان النبيﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قلت له :كَأَنَّهُ لم يَكُنْ في الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إلا خَدِيجَةُ! فيقول: (إِنَّهَا كانت، وَكَانَتْ، وكان لي منها وَلَدٌ). أي أنها كانت صالحة وعابدة وبرَّةً وتقية، ونحو ذلك.

14- أخلاق النبيﷺ مع الأطفال:

- ✓ كان ﷺ يمر بالصبيان فيسلم عليهم. ويسمع جواري (فتيات صغيرات) يغنين في بيته ويلعبن فلا يمنعهن. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "دخل عليَّ أبو بكرٍ وعندي جاريتانِ من جواري الأنصارِ تُغَنِّيانِ بما تقاولَتْ به الأنصارُ يوم بُعاثَ. قالت: وليستا بِمُغَنِّيَتَيْنِ. فقال أبو بَكْرٍ: أبمزْمورِ الشيطانِ في بيتِ رسول اللَّهﷺ وذلك في يوم عيدٍ. فقال رسول اللَّهِ ﷺ : (يا أبا بكر إنَّ لِكُلِّ قومٍ عيداً وهذا عيدُنا).
- ✓ وكان من شدة شفقته على الأطفال ورحمته بهم، أنه كان وهو في الصلاة مع أصحابه يؤمهم، يسمع بكاء الصبي فيخفف من صلاته رحمةً به وبأمه، لِما يعلمه من وَجْد الأم وعطفها على ولدها. يقول ﷺ : (إني لَأَقُومُ في الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فيها فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ في صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ على أُمِّهِ).

- ✓ وكان ﷺ "يَؤُمُّ الناس وَأُمَامَةُ بِنْتُ أبي الْعَاصِ -وهى ابْنَةُ زَيْنَبَ بِنْتِ النبي ﷺ - على عَاتِقِهِ، فإذا رَكَعَ وَضَعَهَا، وإذا رَفَعَ من السُّجُودِ أَعَادَهَا".
- ✓ ودخل الحسن والحسين رضي الله عنهما المسجد ذات مرة، والنبي ﷺ يخطب في الناس، فنظر إليهما فإذا هما يمشيان ويعثران، فخشي أن يصيبهما الأذى من تعثرهما، فنزل إليهما، ووضعهما بين يديه على المنبر وقال: (صَدَقَ الله {إنما أموالُكُمْ وأولادُكُمْ فتْنَةٌ} نَظَرْتُ إلى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ ويَعثُرانِ فلم أصبرْ حتى قَطَعْتُ حَدِيثِي ورفعْتُهُما).
- ✓ وكان ذات مرة يُقَبِّل الحسن وعنده الأقرعُ بن حابسٍ. فقال الأقرعُ: إنَّ لي عَشَرَةً من الوَلَدِ ما قَبَّلتُ منهم أَحداً! فَنَظَرَ إليه رسول اللَّه ﷺ ثُمَّ قال: (مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ). وعندما قال له أحدهم مستغرباً: "تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ! فما نُقَبِّلُهُمْ. فقال النبي ﷺ : (أَوَ أَمْلِكُ لكَ أَنْ نَزَعَ الله من قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ). فبين أن تقبيل الولد ومداعبته وإدخال السرور على قلبه مما يحبه الله. وأن أبعد الناس من الله القلب القاسي.

15- أخلاق النبي ﷺ مع العبيد والخدم:

- ✓ كان النبي ﷺ رحيماً بالعبيد والخدم غاية الرحمة، وكان يُكرمهم غاية الإكرام، ويوصي المسلمين بهم خيراً.

☒ والمواقف والمشاهد التي تؤكد ذلك كثيرة جداً، منها:

أ- كان زيد بن حارثة ﷺ عبداً لخديجة رضي الله عنها، فأهدته للنبي ﷺ بعد زواجهما، وقَدِم والد زيدٍ يوماً إلى النبي ﷺ يطلب إعتاقه، ويبدي استعداده لشرائه بالمال. فأخبره الرسول بأنه سيناديه ويخيره، فقَبِل والده بذلك، وسُرَّ به؛ لأنه لم يكن يساوره أية شكوك بأنه سيختاره والده وأهله، فناداه الرسول وخيره بين البقاء عنده أو اللحاق بوالده. فكان جوابه: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أبداً. قال والده: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وأهل بيتك؟ قال: نعم؛ قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً. فانصرف والده بعد أن أسلم، واطمأن على وضع ابنه. وتبناه الرسول ﷺ ، فأصبح ينادى؛ زيد بن محمد، حتى نَزَلَ في الْقُرْآنِ: (ادْعُوهُمْ لِآبائهِمْ هو أَقْسَطُ عند اللَّه).

ب- كان أسامة بن زيد بن حارثة يُلَقَّبُ بحِبِّ رسول الله وابن حِبِّه. وذات مرةٍ أمَّرَه النبي ﷺ على غزوة، فوجد بعض المسلمين في نفسه شيئاً من ذلك، ربما لصغر سنه، وربما بالنظر إلى والده وكونه مولى، فلم يعجبهم أن يؤمَّرَ على شيوخهم ووجهائهم. فسمع النبي ﷺ بذلك فقام فيهم خطيباً، وقال: (إن تَطعَنُوا في إمرَتِهِ، فقد كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ في إِمْرَةِ أبيه من قَبْلُ، وأيم اللَّهِ إن كان لَخَلِيقاً لِلْإِمْرَةِ، وَإِنْ كان لَمِنْ أَحَبِّ الناس إليَّ، وَإِنَّ هذا لَمِنْ أَحَبِّ الناس إليَّ بَعْدَهُ). وحين أهم قريشاً أمر المخزومية التي سرقت، لم يجد من يمكن أن يشفع فيها إلا أسامة بن زيد لِما يعلمون من مكانته لدى النبي ﷺ.

ج- يقول أنس ﷺ : "خَدَمْتُ النبي ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فما قال لي أُفٍّ، ولا لِمَ صَنَعْتَ، ولا ألا صَنَعْتَ".

د - عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: "ما ضَرَبَ رسول اللَّهِ ﷺ شيئاً قَطُّ بيده، ولا امْرَأَةً، ولا خَادِماً، إلا أَنْ يُجَاهِدَ في سَبِيلِ اللَّهِ. وما نِيلَ منه شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ من صَاحِبِهِ إلا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ من مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عز وجل".

☒ هدي ﷺ في الرفق بالحيوان:

- لم يكن قلب النبي ﷺ المفعم بالرحمة ليستثني الحيوانات من تلك الرحمة، ومن ثَمَّ وجدناه يخصها بأحكام شرعية تؤصل لذلك. يقول النبي ﷺ : (إِنَّ اللَّه كَتَبَ الإحسانَ على كل شيءٍ، فإذا قَتَلْتُمْ فأحسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فأحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ). وقد قال النووي في هذا الحديث الشريف بأنه "من الأحاديث الجامعة لقواعد الاسلام".

- وكان بعض الفتيان ينصبون بهائم للرمي إليها على سبيل اللعب، فرآهم بعض الصحابة، فأنكروا عليهم ذلك لما فيه من إيذاء وتعذيب يتنافى مع رحمة الإسلام. من ذلك ما ورد عن أنس بن مالكﷺ أنه دخل دار الحكم بن أيوب فوجد قَوْماً قد نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا. فقال: "نهى رسول اللَّهﷺ أَنْ تُصْبَرَ البَهَائِمُ".
- ومَرَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بفتْيَانٍ من قريشٍ قد نَصَبُوا طيراً وهُمْ يَرْمُونَهُ وقد جعلوا لصاحبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ من نَبْلِهِمْ، فلما رأوا ابن عمر تَفَرَّقُوا. فقال ابن عمر: "من فعلَ هذا؟ لعن الله من فَعَلَ هذا. إِنَّ رسولَ اللَّهﷺ لَعَنَ من اتَّخَذَ شيئاً فيه الرُّوحُ غَرَضاً".
- وغفر الله لرجلٍ في كلب رآه (يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى من الْعَطَشِ فقال: لقد بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بِي. فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ الله له، فَغَفَرَ له). قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لنا في الْبَهَائِمِ أَجْراً. قال: (في كل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ).
- وعُذِّبَتْ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حتى مَاتَتْ جُوعاً فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ.
- **وختاماً:** فإن هذه الصور لم تكن سوى غيض من فيض عن أخلاق الحبيبﷺ. وإن المجلدات العظام لن تفيه حقه، ولن تحيط بخصاله ومحامده الشريفة. وإن البشر مهما قالوا، ومهما كتبوا فإنهم لن يبلغوا ثناء الله عليه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}.
- وإن من أوجب واجبات الدعاة اليوم، السعيُ إلى إحياء الأخلاق النبوية في حياة الأمة، والتحلي بها، وتربية الأجيال عليها، وخصوصاً في هذا العصر الذي تكاد تختفي فيه القيم والمثل من حياة الناس، وتحل المادة والمنفعة مكانها.
- إن أعظم خدمة نقدمها لديننا الحنيف، وأيسر سبيل للدعوة إلى الله، أن نُعرِّفَ الناس بأخلاق نبينا الكريمﷺ وشمائله، ليتخذوه أسوةً ومَثَلاً أعلى في حياتهم، قال تعالى: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} (الأحزاب:21).
- نسأل الله أن يخلقنا بأخلاق نبيه الكريم، وأن يعيننا على نشرها والدعوة إليها.

(اختبر نفسك)

❖ اختر الإجابة الصحيحة لكلٍ مما يأتي :

(1) يُعَرَّفُ العدل بأنه:

(أ) المساواة في المكافأة في خيرٍ أو شرٍ (ب) مقابلةُ الخيرِ بأكثر منه

(ج) الإحسانُ (د) مقابلة الشر بأقل منه

(2) الزوجة التي أهدت عبدها زيد بن حارثةﷺ للنبي ﷺ بعد زواجهما هي :

(أ) حفصة رضي الله عنها (ب) خديجة رضي الله عنها

(ج) عائشة رضي الله عنها (د) زينب رضي الله عنها

... انتهت المحاضرة السابعة ...